جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

التمسك النصي في الخطاب النبوي في صحيح البخاري ومسلم وحدة الأمة نموذجا

إعداد
د. حسن عبد العزيز شعبان أبو عامر
مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الأول-فبراير)
(الجزء الرابع) (١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٤/٦٢٧١م

التمسك النصي في الخطاب النبوي في صحيح البخاري ومسلم وحدة الأمة نموذجا

حسن عبد العزيز شعبان أبو عامر
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: hassanaboamer.3424@azhar.edu.eg

الملخص :

تهدف الدراسة إلى محاولة وحدة الامة فهي في أشد الحاجة إليها حتى ترسم أهدافها، وتسعى لتحقيق أمالها بين الأمم والمجتمعات، وقد جمعت هذه الدراسة بعضا من الأحاديث في كتابي البخاري ومسلم التي تؤهل الأمة إلى الوحدة الإسلامية، كما تهدف الدراسة إلى الحديث عن المقومات التي ترجع بالأمة إلى قوتها وتماسكها ووحدتها، والأسباب التي أدت إلى زوال هذه الوحدة ومحاربتها. ونحن نسير في إبراز هذه المسألة المهمة، ولتحقيق هذه الأهداف قام البحث ببيان مفهوم التمسك النصي، ومفهوم الوحدة، وتحرير المصطلح، مع بيان أهميتها في المجتمع المسلم من خلال الأحاديث النبوية التي تشتمل على صورة وحدة المجتمع، والوقوف على دور البلاغة العربية في بيانها؛ لفهم المراد من هذه الأحاديث، والوقوف على معناها، وصولا إلى الغاية المنشودة من ورائها.ولطبيعة البحث فقد سلكت منهجا يبدأ بذكر الحديث، وينتقل إلى إجمالي القول في معناه،ثم دراسته دراسة تجعل من القاعدة البلاغية وسيلة للكشف عن أسرار لغة من أوتي جوامع البيان(ﷺ) حتى تسهم في تلقي هذه المعاني بسهولة لدى القارئ.وقد قاد المنهج البحث إلى بعض النتائج من أهمها:اعْتمدتْ أحاديث الوحدة الوضوح مع الدقة في اختيار الألفاظ الدالة على الوحدة بين التراكيب، وبناء ذلك في نظم دقيق يصل إلى المراد، بحيث لو بدل أو غيِّر في نظمها لا تجد المعني الذي تجده إذ لم توجد، فإنك لا تجد بها بدلا ولا تبتغي عنها

حولا، كما اتسمت أحاديث الوحدة بالإيجاز في اللفظ المعبر عن المراد، بحيث تصل إليه من أقرب طريق مع كثرة معانيها والنكات البلاغية حولها، كما اتسمت بأنها كانت تأتي في أحاديثها بالكلمة الأم، أو الجملة الأم، ثم يدور حولها الحديث حتى تستنتج من كل لفظ أنه يشير ويصب في ذلك القالب، فتقف على أن كل لفظ قد جاء به لبيان فضل الوحدة، أو العوائق التي تحول حولها. كما جاءت أحاديث الوحدة بين أسلوب الخبر والإنشاء، إما لأنه(ﷺ) يأمر ببواعث الأخوة في الأمة، أو ينهى عن الأشياء التي تعوق وحدتها، أو يخبر بفضلها ومكانتها، أو ما يقع لها عبر الزمان. وقد يستعمل الإنشاء في موضع الخبر حتى وكأن هذا المخبر عنه مطلوب بذاته أو التنبيه إلى الاهتمام به، وقد يوضع الخبر موضع الإنشاء؛ لحمل المخاطب على تحقيق الغرض دون صورة النهي والأمر، أو التنوع بين الخبر والإنشاء ليجذب فكر السامع وعقله إلى هذه المشاركة الفعالة نحو وحدة الأمة وتماسكها.

الكلمات المفتاحية : الأخوة تؤصل وحدة الأمة، التفرق والقطيعة سبب في قطع الرحمات، محاربة أسباب الفرقة، التمسك النصي، وحدة الأمة ووسائل تحقيقها.

Textual adherence to the Prophet's speech in Sahih Al-Bukhari and Muslim The unity of the nation is a model

Hassan Abdel Aziz Shaaban Abu Amer
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Itay al-Baroud, Al-Azhar University, Egypt.
Email: hassanaboamer.3424@azhar.edu.eg

Abstract:

The study aims to try to unite the nation, as it is in dire need of it in order to set its goals and seek to achieve its hopes among nations and societies. This study has collected some of the hadiths in the books of Al-Bukhari and Muslim that qualify the nation for Islamic unity. The study also aims to talk about the components that bring back the nation. To its strength, cohesion and unity, and the reasons that led to the demise of this unity and the fight against it. We are proceeding to highlight this important issue, and to achieve these goals, the research has clarified the concept of unity, and liberalized the term, while explaining its importance in Muslim society through the prophetic hadiths that include the image of the unity of society, and identifying the role of Arabic rhetoric in explaining it. To understand what is meant by these hadiths, and understand their meaning, in order to reach the desired goal behind them. Due to the nature of the research, I followed an approach that begins with mentioning the hadith, moves to the general statement of its meaning, and then studies it in a way that makes the rhetorical rule a means of revealing the secrets of a language that has the full meaning of the statement so that it contributes to the reader receiving these meanings easily. The research approach led to some results, the most important of which are: The hadiths about unity relied on clarity and precision in choosing the words that indicate unity between the structures, and constructing that in precise systems that reach what is intended, such that if one alters or changes their systems, you will not find the

meaning that you find if they do not exist, for you will not find a substitute for them and you will not seek a solution to them. The hadiths about unity were also characterized by their brevity in the wording expressing what was intended, so that they reached it by the closest path, despite the abundance of their meanings and rhetorical jokes around them. They were also characterized by the fact that they used to come in their hadiths with the mother word, or the mother sentence, and then the conversation revolved around it until you concluded from each word that it refers and refers. In that template, it stands for the fact that every word was used to explain the virtue of unity, or the obstacles around it. The hadiths on unity also came between the style of reporting and creating, either because he (peace be upon him) commands the motives of brotherhood in the nation, or forbids things that hinder its unity, or tells of its virtue and status, or what will happen to it over time. The construction may be used in the place of the news, even as if this information is required in itself or a warning to pay attention to it, and the news may be placed in the place of the construction; To force the addressee to achieve the purpose without the form of prohibition and command, or the diversity between news and construction, to attract the listener's thought and mind to this effective participation towards the unity and cohesion of the nation.

Keywords: *Brotherhood establishes the unity of the nation, division and estrangement cause the severing of ties of ties, combating the causes of division, adhering to the text, the unity of the nation and the means to achieve it.*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين وبعد:

فإن حاجة الأمة إلى الوحدة والتآلف بين أفرادها والتمسك بحبل الله المتين أمر حض عليه الإسلام ورغب فيه، إذ هو أصل من أصول الدين قال تعالى:(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)(١)، وقال(ﷺ):«الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»(٢).

إن مناط الوحدة والأخوة إنما هو رابط الإسلام بين المسلمين وهو من أهم أسباب قوتها وتقدمها بين الأمم قال تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)(٣)، وهذا هو الطريق الوحيد لإقامة أمة متماسكة تقوم على وحدة صفها وتماسكها بكتاب ربها قال تعالى: (وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)(٤)، وهذا أصل مهم وخطوة نحو هذا الهدف المنشود من إقامة مجتمع مترابط تجمعهم عقيدة واحدة ليس للوحدة سبيل إلا بها، وهذا يتطلب من كل مسلم أن ينبذ كل فرقة وتدابر وتقاطع يضعف من قوة هذا المجتمع، وتحصل به الفرقة قال تعالى: (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا

---

(١) سورة آل عمران من الآية (١٠٣).

(٢) صحيح مسلم: ك/ البر والصلة والآداب، ب/بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، حديث رقم ٦٧ (٢٥٨٦).

(٣) الأنبياء: آية: ٩٢.

(٤) الأنفال آية ٤٦.

جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(١)، وأن يجاهد نحو السعي في تحقيق هذا الهدف، فإن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق تأليف واصطفاف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم وأمور دنياهم، وهذه خطوة مهمة نحو وحدة الأمة، وسبب من أسباب اختيار؛ الموضوع للوقوف على بعض الأسباب والأسس التي تحقق الوحدة، وتجمع شمل الأمة نحو مكانتها التي بينها القرآن الكريم وتحدث عنها (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)(٢).

والخيرية تقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا يقتضي التعاون بين المؤمنين، وإيثار الرحمة والألفة والتسامح والتكافل، وهذا ملازم للإيمان بالله قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)(٣).

ولقد صور لنا النبي(ﷺ) صورة المؤمن في بيانه كأنه وحدة واحدة، وبنيان متماسك، وجسد واحد يتألم لألم عضو فيه، وجاء ذلك في نظم يمسك بعضه ببعض، فلا ينفك منه جزء عن الآخر، كأجزاء الجسد لا يستغني منه عضو عن الآخر، من هنا وجهت وجهي -بفضل الله وكرمه- إلى البيان النبوي، وأن الدراسة البلاغية فيه تتطلب مزيدا من التأمل، والفكر، ومعاودة النظر المرة بعد المرة، والطواف حول الكلمة الواحدة فيه وصولا إلى الغاية المنشودة؛ لذا جاء البحث بعنوان: التمسك النصي في الخطاب النبوي في صحيح البخاري ومسلم وحدة الأمة نموذجا.

وقد وقع اختياري على هذا الموضوع؛ للشدة الربط بين وحدة الأمة، ووحدة النص الماثل فيه، إذ الحال في النص عن وحدة الأمة كالحال عن وحدة الجسد يعمل النظم فيه متكاملا بين أجزاء الكلام وقضاياه التي يعتمد السابق فيها على اللاحق،

(١) آل عمران آية ١٠٥.

(٢) آل عمران من الآية: ١١٠.

(٣) الحجرات من الآية: ١٠.

ولا يستغني فيها اللاحق عن السابق، من خلال الوقوف على دراسة البلاغة العربية في بيانها؛ لفهم معاني البيان النبوي والأحاديث التي تشتمل على صورة المجتمع، وكيف كان للأساليب البلاغية دور في خروج هذه الصورة في وحدة متماسكة مترابطة؛ للإخبار عنها في نظم متكامل بأعزب لغة، وأفصح بيان؛ لحاجة الأمة في هذا الزمان إلى من يذكِّرها بوحدتها وألفتها، كما أن هذا الموضوع من الأهمية بمكان أن يفرد له عدة أبحاث بلاغية للوقوف على مناطق الجمال والكمال للأمة في حالة تماسكها وترابطها.

واعتمد البحث على المنهج التحليلي الذي يقتفي أثر النظم، ويتتبع كل عنصر فني، أو أداة تعبيرية تسهم في الكشف عن المعنى، مع دور السياق في تحديد الدلالة، وأثر المقام في توجيه المعنى، وجاء ذلك وفق جمع الأحاديث النبوية التي اشتملت على بيان وحدة الأمة، وترك أسباب الفرقة، وتقسيمها على مبحثين كل مبحث يشمل عدة صور تنتمي إلى المقام نفسه.

عند ذكر المقام محل الدراسة قمت بتوطئة مختصرة مع بيان أهميته وحاجة المجتمع له، وقد جاءت طريقة التحليل بكتابة الحديث الشريف محل الدراسة، ثم القيام بتخريجه في الهامش، وأردفت الأحاديث بذكر معناها حتى يتمكن القارئ من الوقوف على معناها قبل رصد الأسرار البلاغية، ومواطن الجمال في البيان، كما تضمن البحث فهرسة لآيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وثبتا لأهم المصادر والمراجع.

خطة البحث: هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين كل مبحث يشمل صورا تنتمي إليه، ثم الخاتمة، والفهارس العامة وهي على النحو التالي:

التمهيد ويحتوي على: مفهوم التمسك النصي، ومفهوم النص. تعريف الوحدة، أهمية الوحدة في المجتمع المسلم.

وأما عن **المبحثين**: **فالأول**: وسائل تحقيق وحدة الأمة، ويشتمل على صور. **والثاني**: أسباب الفرقة بين الأمة ويشتمل على صور. ثم **الخاتمة**.

وبعد.... فهذا جهد المقل المتواضع الذي حاول أن يوفي الدراسة حقها فإن أصبت فالفضل من الله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي، وحسبي أني بذلت قصارى جهدي بقدر ما أوتيت من فهم ووعي وجهد سائلا الله –تعالى التوفيق الرشاد إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصل اللهم على البشير النذير السراج المنير.

الباحث: حسن عبد العزيز شعبان أبو عامر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود.

التمهيد:

أولا: مفهوم التمسك النصي:

التمسك له عده معان يدور حولها في اللغة: منها الشدة والصلابة وعدم التفكك، وجاء في أساس البلاغة: أمسك الحبل وغيره، وأمسك بالشيء ومسك وتمسك واستمسك وامتسك. وأمسكت عليه ماله: حبسته([١])، وجاء في لسان العرب: أمسك الشيء حبسه([٢])، وعند النظر في دوران هذه اللفظة في معاجم اللغة فإن معناها يؤدي في النهاية إلى الحبس والترابط والتلاحم والانسجام والسبك والوحدة وجودة الحبك.

وفي الاصطلاح الكيفية التي تمكن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النص، ومعها يصبح النص وحدة اتصالية متجانسة([٣]).

ومفهوم النص: يقال نص الشيء رفعه وأظهره، وفلان نص أي استسقى مسالته من الشيء حتى استخرج ما عنده، ونص الحديث ينصه نصا إذا رفعه، ونص كل شيء منتهاه([٤]).

والنص: هو وحدة اللغة المستعملة، وليس محددا بحجمه.... وهو يرتبط بالجملة بالطريقة التي ترتبط بها الجملة بالعبارة([٥]).

---

(١) ينظر أساس البلاغة: مسك.

(٢) ينظر لسان العرب: مسك.

(٣) ينظر علم لغة النص والتطبيق عزه شبل ص ١٨٤، مكتبة الآداب القاهرة الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٩.

(٤) ينظر لسان العرب: نص

(٥) ينظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على الصور المكية دكتور صبحي ابراهيم الفقي ص ٢٩ دار قباء الطبعة الأولى.

ولقد أشار الإمام عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز إليه، وأول من عرفه تعريفا لم يصل إليه المحدثون، وإنما أخذوا يطوفون حوله من بعيد ولا ينسبون قولهم إليه، بل ربما وصل بهم الأمر إلى أنهم خلطوا بين تعريف النص وغيره، ولم يستقروا على تعريف بعينه، كما حدده الإمام "اعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلكُ، في توخِّي المعاني التي عرفتَ: أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجِملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَسارِهِ هناك"(١). وقال: "واعلمْ أنَّ مَثَلَ واضِعِ الكلام مثَلُ مَنْ يأخذ قطعًا من الذهب أو الفضةِ فيُذيبُ بعضَها في بعضٍ حتى تَصير قطعةً واحدةً"(٢).

ثانيا: **تعريف الوحدة**:

الوحدة: الانفراد والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له(٣).

وهي اتحاد المؤمنين في أمور دينهم وحياتهم ومعيشتهم، وجمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم إلى غايتهم، ونشر المحبة والألفة والمودة بينهم جميعا.

فالوحدة قول وعمل يجمع بين أفراد الأمة وجماعتهم دون التقييد ببقعة من الأرض، إنما ساحة عمل الوحدة في الأمة المسلمة حيثما وجد الإيمان فذلك موطنها ومستقرها ومبعثها، فالمسلمون كالجسد الواحد، فمتى شعر الرجل بغيره كأنه نفسه، ودمه كدمه، وماله كأنه ماله، وما يطرأ عليه من ألم وحزن يؤلمه يصيب الأمة كلها، فقد تحققت الوحدة، وتمكنت الأمة، وقوي عزمها، وارتفعت رايتها، وانتصرت على أعدائها.

---

(١) دلائل الإعجاز: ص٩٣.

(٢) المصدر السابق نفسه: ص٤١٣.

(٣) ينظر لسان العرب: وحد.

أهميتها في المجتمع

الإسلام دين الوحدة والتماسك والألفة، وهذه الأصول أساس نهضة الأمة وقوتها، وبها تعلو الأمة، وتستقيم حياتها، ولقد أكرمنا الله عز وجل حين ألف بين قلوبنا، وجعلنا أحبة وإخوانا قال تعالى: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(١)، وقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)(٢).

ولقد أمر الله عباده بالوحدة والائتلاف، ونبذ الفرقة والنزاع قال تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ)(٣)، فطريق الوحدة والتعاون والتأخي، التمسك بحبل الله المتين، واتباع طريقه المستقيم قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)(٤)، والتفريط في هذا لا يكون معه اجتماع للأمة، وهو من أهم أسباب فرقتها وتأخرها، ولذلك أمر الله –تعالى– رسوله بكل ما يحفظ للمسلمين جماعتهم وألفتهم ونهاهم عن كل ما تحصل به الفرقة والتدابر والتناحر يقول القرطبي: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْأُلْفَةِ وَيَنْهَى عَنِ الْفُرْقَةِ فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هَلَكَةٌ وَالْجَمَاعَةَ نَجَاةٌ. وَرَحِمَ اللَّهُ ابْنَ الْمُبَارَكِ حَيْثُ قَالَ: إِنَّ الْجَمَاعَةَ حَبْلُ اللَّهِ فَاعْتَصِمُوا ... مِنْهُ بِعُرْوَتِهِ الْوُثْقَى لِمَنْ دَانَا(٥)"(٦)، فطريق الاعتصام بحبل الله أن

(١) الأنفال آية: ٦٣.
(٢) الحجرات من الآية : ١٠ .
(٣) آل عمران من لآية: ١٠.
(٤) الأنعام من لآية: ١٥٣.
(٥) ديوان الإمام عبد الله بن المبارك، تحقيق سعد كريم الفقي ص٢١، مصر المنصورة، وقد أورده أبو نعيم في الحلية، ١٦٤/١، مطبعة السعادة القاهرة طبعة ١٣٩٤هـ، وبدائع السلك ١٠٨/١، وابن عبد البر في التمهيد٢١/ ٢٧٥.
(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٥٩/٤،تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤ م.

نلتزم بقرآنه، وما جاء به رسوله، وهذا أصل وحدة الأمة، فإذا تمسكت الأمة الإسلامية بالكتاب والسنة أصبحت أمة واحدة في عقيدتها وشئون حياتها، ومن ثم علت بينهم صفة التراحم والتواد حتى أصبحوا كالجسد الواحد الذي يتأثر فيه كل عضو بما أصاب الآخر، أو كأنهم بنيان تتشكل لبناته وتتكون في وحدة متماسكة يقوي بعضه بعضا، ومن ثم جمع الإسلام شملهم، ووحد على الحق رايتهم حتى أصبحوا إخوانا متحابين بعد أن كانوا على شفا جرف هار.

ولقد جاء القرآن بالجمع بين التوحيد والأمة الواحدة في مواطن عديدة قال تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)(١)، فالإسلام هو نقطة الوصل بين الأمة، فحيثما كان فذلك مبعث الأمة وطريقها الوحيد إلى إقامة مجتمع متماسك مترابط تسود روح الألفة والمحبة بين أفراده، ومن ثم كان الإسلام عاملا مشتركا بينهم به تستطيع الأمة أن تجمع شملها وتوحد كلمتها، فهي أمة ذات شريعة واحدة إن هي أخذت بما فيها اجتمعت على كلمة واحدة، وصف واحد، وإن هي انحرفت عنها ضاقت وتشتت وصالها وضعفت وذهب ريحها قال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)(٢).

إن الأمة بحاجة إلى تحقيق الوحدة، واجتناب الفرقة والنزاع، وهذا أمر مهم في سر قوتها، ومفتاح نجاحها، وتقدمها بين الأمم؛ إذ اجتماع صفها، وتوحيد كلمتها وسيلة لقوتها وتماسكها، وأداة لحفظ كيانها، وقوتها بين الأمم، ودفع شرار أعدائها، وسبب من أسباب تمكنها، ومن ثم كان الحفاظ على الوحدة فرضا شرعيا، ومطلبا حتميا لا يجوز التفريط فيه؛ لأنه يؤدي إلى الأسباب المؤدية إلى ضعف الأمة وتفرقها، وفيما يلى بعض الأحاديث التي تؤكد على وحدة الأمة وتماسكها وبعض الوسائل التي تحققها، والأسباب التي تؤدي إلى تفريقها وضعفها، وتنازعها، وذهاب ريحها.

---

(١) الأنبياء آية: ٩٢.
(٢) الأنفال من الآية: ٤٦.

المبحث الأول

وسائل تحقيق وحدة الأمة

لأمـة الإسـلام أصـول مهمـة تحقـق وحـدة الصـف والـتلاحم بـين أفـراده، وهـذه الأصول تنبعث من عقيدة الإسلام الذي جعل من العرب أمـة واحدة بعد أن كانوا فرقا متنـاحرة قـال تعـالى: (أَوَلَـمْ يَـرَوْا أَنَّـا جَعَلْنَـا حَرَمًـا آمِنًـا وَيُتَخَطَّفُ النَّـاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُـونَ وَبِنِعْمَـةِ اللَّـهِ يَكْفُرُونَ)(١) لقد جعلهم إخوة متحـابين تـربطهم روح الأخوة التـي جعلتهم كالجسد الواحد تسود بينـهم الرحمـة والمودة والتسامح وهذا ما صوره القرآن قال تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْـنَهُمْ)(٢)، وهـذه هـي حـلاوة الإيمـان التـي لـم يـذقها المـرء إلا بـالتراحم والتعـاطف والتحاب بين أفراد الأمة قال(ﷺ): " ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"(٣) والمتأمل في البيان يجد أن النبـي(ﷺ) ربط العقيدة بـالأخوة وهذا أصل متين، فـالأخوة فـي الدين هي من أهم أسباب جمـع الأمـة وتوحيدها؛ لذا اعتمد النبـي(ﷺ) عليها فـي دعوتـه حيث جمـع أفئدة الصحابة على عقيدة الإسلام لا فرق بينها إلا التقوى والعمل الصالح.

لقد استطاع النبـي(ﷺ) أن يجعل من قلوب الصحابة -رضي الله عنهم- قلبا واحدا ينبض في صدور عديدة، وفيما يلي بعض الصور التي تجمع شمل الأمة وبيان بلاغتها.

---

(١) العنكبوت من الآية: ٦٧.

(٢) الفتح من لآية: ٢٩.

(٣) صحيح البخاري: ك/ الإِيمَانِ، ب/ حَلاَوَةِ الإِيمَانِ حديث رقم ١٦.

الأخوة تؤصل وحدة الأمة، والخصومة تمزقها

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (ﷺ)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»(١).

في هذا الحديث الشريف يدعو الإسلام إلى التألف والتراحم والتعاطف فيما بين المسلمين، فهم أخوة متحابون فيما بينهم، ثم يدعوهم إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وينهاهم عن الحسد والأسباب المؤدية إلى التنافر والإعراض والقطيعة، ثم يدعوهم بأن يكونوا إخوانا متحابين يتعاملون معاملة الأُخْوة في المودة والرفق والتعاون في الخير، فلا يحل لأحد أن يظلم أحدا أو يعتدي عليه أو يستصغره، ثم بين العبرة بما يقوم عليه الإيمان من حصول التقوى والتي مستقرها القلب، ومن أمارتها أن تترك الأثر الحسن على الأخلاق، وجميل الخصال.

جاء هذا الحديث في قالب يمسك بعضه بعضا في وحدة مترابطة بين الألفاظ والتراكيب، كل جملة تأخذك إلى التي تليها في نظم مترابط ومعنى بينهما قائم، وهذا بناء بلاغي عال يقوم على سهولة المعنى وجزالة الألفاظ، ليتناسب مع المقام الذي

---

(١) صحيح مسلم : ك/ البر والصلة والآداب، ب/ بَابُ تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ، وَخَذْلِهِ، وَاحْتِقَارِهِ وَدَمِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَالِهِ، حديث رقم ٣٢ (٢٥٦٤).

التناجش: النُّونُ وَالْجِيمُ وَالشِّينُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِثَارَةِ شَيْءٍ. مِنْهُ النَّجْشُ: أَنْ تُزَايِدَ فِي الْمَبِيعِ بِثَمَنٍ كَثِيرٍ لِيَنْظُرَ إِلَيْكَ النَّاظِرُ فَيَقَعَ فِيهِ مقاييس اللغة (نجش). التَّدَابُرُ المُصارَمَةُ والهِجْرانُ، مأْخوذ مِنْ أَن يُوَلِّيَ الرجلُ صاحِبَه دُبُرَه وَقَفَاهُ ويُعْرِضَ عَنْهُ بِوَجْهِهِ ويَهْجُرَه لسان العرب: (دبر). يَخْذُلُهُ خَذْلًا وخِذْلاناً: تَرَكَ نُصْرته وعَوْنه. لسان العرب (خزل).

جاء لأجله من حقوق المسلمين على بعضهم البعض، وشد أواصرهم ووحدتهم كرجل واحد.

وقد جاء كلامه(ﷺ) مشتملا على عدة من الأساليب شكلت وحدة النص وتماسكه، من بين هذه الأساليب الأسلوب الطلبي الماثل في النهي (لا تحاسدوا)، وتكراره في البناء يجعله يمسك بعضد الآخر، حتى لا يكاد السامع يخرج من نهي إلا ويدخل في آخر؛ لتظهر صورة الأخوة الخالية من شوائب الخصومة، فتركن النفس إلى الأمر الحاصل في قوله: (وكونوا عباد الله إخوانا)، وقد جاء تعليل النهي عن هذه الخصال بقوله: كونوا عباد الله في قوله (المسلم أخو المسلم) في صورة التلاحم بين النهي وعلته، فأضفى على النص مزية التماسك، كما أن البيان آثر التفصيل بعد الإجمال كل المسلم على المسلم حرام، كذلك روعي الوصل بين الجمل بالواو، والذي من شأنه التشريك في الحكم، وما بينهما من المناسبة البالغة التي تحتاج إظهار قوة الفعل، وهذه الأساليب قد تقاربت وتآلفت مع بعضها وتساندت في مبناها حتى توافقت في معناها وهذا ما يناسب مقام الأخوة.

وفيما يلي بعض المرتكزات البلاغية التي أضفت على النص صفة التماسك والترابط بين الألفاظ والمعاني في سياقها ومقامها منها:

أنه(ﷺ) استفتح الحديث بالنهي عن بعض الصفات التي تمزق أواصر الأخوة، وتفرق وحدة الأمة فقال: (لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ) والحسد هو تمني زوال النعمة من أخيه المسلم، أي: يتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه(١)، والملاحظ في هذه الخصال المذمومة التي تصيب النفوس الخبيثة، وطريقة صياغتها يجد أنها جاءت في صياغة النهي الصريح الذي

---

(١) ينظر لسان العرب: حسد.

يفيد الكف عن هذه الصفات المذمومة ليقطع دابر هذا الأمر الذي يؤجج نار الفتنة والعدوان بين أفراد المجتمع المسلم.

وقد استفتح النبي(ﷺ) البيان بخصلة الحسد، وهي رأس كل بلية، وصفة جامعة لكل رذيلة، والحسد داء وبيل قال عنه معاوية -رضي الله عنه-: «كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها»(١)، ولذلك قيل:

كُلُّ العداوة قد تُرْجَى إِماتَتُهَا ... إلا عدَاوَة من عادَاكَ عن حَسَد(٢).

ومن رحمه يخرج التناجش، وله معنيان الأول: أن يزيد في ثمن السلعة المعروضة للبيع لا للرغبة في شرائها بل ليَغُرَّ غيره فيشتريها(٣)، والثاني: اغراء بعضهم بعضا على الشر والخصومة(٤)، وكل معنى من هذين المعنيين قد خرج من رحم الحسد، فالذي جاء ليغر غيره ويخدعه في البيع غرضه الأول الإيذاء، والذي جاء ليثير الشر والخصومة غرضه الإيذاء، والتناجش بمعناه الثاني أشد خطرا على الأمة وأضر بوحدتها، ومن ثم توسط اللفظ الحسد والتباغض لأنه يتولد من الحسد وينشأ منه التباغض والتدابر، وهذا يتناسب مع بيئة واحدة هي بيئة الخصومة والتقاطع والتهاجر، وهذا ما يعرف بمراعاة النظير.

---

(١) ينظر: الدرر المنتقاة من الكلمات الملقاة: أمين بن عبد الله الشقاوي،٣/٤٥٩، الناشر: [من دون]، الطبعة: الثامنة، ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣ م.

(٢) ديوان الإمام الشافعي رحمه الله: محمد بن ادريس الشافعي، ص ٩، وجاء في مناقب الشافعي للبيهقي، أحمد بن الحسين البيهقي ت/ السيد أحمد صقر: ج٢/ ٧٤، مكتبة دار التراث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.

(٣) ينظر حاشية الجمل: ٣/ ٩٢.

(٤) ينظر شرح المشكاة للطيبي: ١٠/ ٣٢١٠.

والتعبير بالتدابر كناية عن التقاطع والتهاجر، لأن الهاجر والمقاطع يحول ظهره ودبره إلى جهة الذي قاطعه وخاصمه، فصورة الإقبال قد زالت عنهما وحل محلها صورة الإدبار، وفي التعبير بالمعنى المكني ما يفيد توبيخ وتقبيح هذا المنصرم المنقطع الذي ولى بدبره، كما أن التعبير بالتدابر يظهر أمارات العداوة بين الأخ وأخيه في صورة واضحة، وقد خرجت من مكنون النفس حتى صارت على أحوالهم وأفعالهم، وفي اللفظ استعارة تمثيلية حيث شبه حال من يقاطع أخاه ويهجره ويخاصمه بعد أن توافرت أسباب القطع بحال من استدار بجسده ورجع إلى الوراء، وقد أبانت الصورة تمزق هذه الأمة، وتفرق شملها إذ هي وقعت في هذه الرذائل.

وتكرار النهي مع كل بلية يفيد أن كل خصلة من هذه الخصال قد نهى عنها نهيا مستقلا، وكأن كل واحدة قادرة على تفتيت أواصر هذه الأمة، وثمة معنى جيد وبلاغة عالية في مجيء التعبير بصيغة التفاعل والتي "تدل على المشاركة والصراع والتفاعل بين الطرفين مما تصور حقيقة المنهي عنه والمحرم فيؤدي إلى تشتيت الأمة وتدمير قوتها"(١).

وجاء في ختام هذه الصفات(وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ) نتيجة للخصال السابقة، لأن الحسد والتناجش بدورهما صناعة هذه الخصال التي تهدم أركان الأمة فجاء النهي عنها توجيها للمسلم في معاملاته، فلا ينبغي له أن يفسد على أحد بيعه ليفوز به، لأن في ذلك إغاظته وإثارته واستفزازه، ومن ثم حرمت هذه البيعة لأنها المؤدية إلى القطيعة والإعراض، فأراد النبي(ﷺ) أن يقطع هذا العدوان درءا للأسباب المؤدية للتخاصم والتدابر.

---

(١) التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف: أ.د/ علي علي صبح: المكتبة الأزهرية للتراث الطبعة: الأولى: ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.

وقد يراد بالبيع هنا الشراء أي: لا يشتري على شراء أخيه([1])، والأولى حمل الكلام على البيع والشراء لأن الصورة حاصلة في الأمرين، والتعبير ب(على) والتي تفيد الاستعلاء أي: أنه لا يأتي هذا الأمر إلا وهو مستعل على صاحبه.

ومن السمات البلاغية في هذا البيان الترقي والتدرج في ترتيب هذه الصفات المذمومة، فكل صفة تأخذك إلى الأخرى، فالحسد يؤدي إلى التناجش، الذي يقوم بدوره في تفرق الأمة وتباغضها وتدابرها، فلا تُبقى قيما ولا تعاملا حسنا في معاملة، فجاء النهي سدا لهذه الرذائل؛ ليصل إلى الغاية المرجوة من إقامة مجتمع متماسك تسود فيه الأخوة بين أفراده، ومن ثم جاء في عقب هذا بقوله: (وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا) والتعبير بفعل الأمر مفاده النصح والإرشاد؛ ليكونوا متواصلين متألفين فيما بينهم تسود بينهم روح الأخوة، وإيثار لفظ العبودية وإضافتها إلى الله تذكيرا بالطاعة المطلقة لله ورسوله، والتعبير بلفظ (إخوانا) للتذكير بالرحمة والشفقة والمواساة، والمعنى إذا كنتم هكذا فلا يصح بينكم أن تنتشر هذه الرذائل، واللفظ إما خبر كان بعد خبر لها، أو بدل والأوجه للمعنى أنه خبر لكان، وقوله: (عِبَادَ اللهِ) جملة معترضة منصوبة على الاختصاص بحرف النداء المحذوف تقديره: كونوا يا عباد الله، وهذا أولى لأنه أفاد المساواة فيما بينهم في كونهم عبادًا لله، وإذا كانوا على هذا الحال فالتحاسد والتناجش والتباغض والتدابر والبيع على بيع البعض منافٍ لحالهم([2])، وقد روعي الوصل بين الجمل السابقة للتوسط بين الكمالين، فقد اتفقت الجمل في الإنشائية لفظا ومعنى ووجدت المناسبة المسوغة للعطف بينهما، وهي تصوير حق الأخ على أخيه في عدم العدوان عليه بهذه الصفات.

---

(١) حاشية الجمل ٣/ ٣.

(٢) ينظر: شرح المشكاة: ١٠/ ٣٢١٠

وشرع النبي(ﷺ) في بيان آخر يَخرج من رحم الذي قبله فقال: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ) ليشير إلى أخوة الدين وهي أخوة تعلو التي سبقت؛ لأن الأولى يراد بها جميع الخلق، ليشير إلى أنهم منسوبون إلى أصل واحد في كونهم جميعا عبيدا لله، والثانية إيحاء بثبات الأخوة في الدين، وضرورة الاتصاف بها بين المؤمنين، وهذا البيان يخرج من قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)(١)؛ لتوثيق هذه الأخوة وإثباتها وعضَّد هذا المعنى مجيء البيان في صورة الاسمية تأكيدا لمدلولها، وتقوية لمعناها.

وجاء تعريف المسند إليه لإفادة التعظيم من شأن المسلم وعلو مكانته وأل فيها للجنس أي: استغراق الحكم لجميع الأفراد، وفي تمسك النص بالتعبير بـ(المسلم) دون مدلولاتها ليشير إلى مدى التسليم والإذعان والطاعة لهذه النواهي، وإيحاءً بأن تجنب هذه النواهي من معالم الدين وأركانه، ومن ثم يكون مسلما لله من هذه الآفات والآثام والرذائل واستحق أن يطلق عليه كلمة الإسلام.

والتعبير بالأخوة مضافة إلى المسلم يوحي إلى مدى الحب والود الذي عليه المسلمين، حيث شبه(ﷺ) شدة الترابط والتلاحم بين المسلمين بالأخوة لهم إلى قومهم بالنسب على سبيل الاستعارة التصريحية.

وهذا البيان (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ) تعليل لبيان الصد عن هذه الرذائل أي: إن كان لا يحل لعباد الله جميعهم هذه النواهي فمن باب أولى لا يحل لمسلم أن يقترف منها شيئا؛ لأن أخوة الإسلام نافية للجمع بينها وبين هذه الرذائل، ومن ثم استدعى المقام مجيء (لا) النافية في نفي هذه الخصال عن الأخوة في الإسلام(لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ)، وهي حاملة هنا معنى النهي لسر بلاغي وهو زيادة تقرير نفي هذه الخصال في المجتمع المسلم، وهذا أبلغ وأشد وآكد من النهي الصريح(٢). وأرى

(١) الحجرات من لآية: ١٠.

(٢) روح المعني: للألوسي: ٢٧/ ١٥٤،والكشاف: الزمخشري: ٤/ ٤٦٧.

أن هذه الخصال خارجة من بيئة الظلم ومن ثم استفتح به لشناعته وشدته قال تعالى: (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا)(١)، (وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)(٢).

وقوله: (وَلَا يَخْذُلُهُ) أي لا يترك نصرته وإعانته مع الاحتياج إليه، ودفع الضرر عنه فإن تركه خذله وأعان على ظلمه، قال تعالى: (وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ)(٣) وإلم يكن منه إعانة لأخيه، ودفع الضرر عنه ونصره، كان ذلك عين الظلم له، ومن ثم خرج من رحم البيان السابق، وجاء في ختام هذه المنهيات عنها فقال: (وَلَا يَحْقِرُهُ) وهي من الخذلان لأنه ما خذله إلا لتحقيره، وما حقَّره إلا لتكبره عليه واستصغاره له، وقد نهى الإسلام عن ذلك قال(ﷺ) «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»(٤)، والغمط هو الاحتقار، ومن ثم نهى النبي(ﷺ) عن هذه الخصال التي تفتك المجتمع، وتهدم وحدته، وزاد من تقرير النفي تكرار الأداة مع كل خصلة دون الاقتصار على الواو وذلك لما في دلالة النفي بـ(لا) من قوة على قوة لغظم هذه الرذائل، ومن أدوات التمسك النصي الوصل بين الجمل الثلاث بالواو لما بينهما من التوسط بين الكمالين وذلك لاتحادهما في الإنشائية مع وجود المناسبة بينهما.

وجاء قوله (التَّقْوَى هَاهُنَا) بين كلام سابق ولاحق للاعتراض وهذا من صميم التمسك النصي؛ لبيان التنبيه على حرمة هذه الخصال، وتقرير ذلك وتأكيده، وتنشيط النفس وإثارتها نحو المقياس الحقيقي لعباد الله، والكشف عن نفوسهم بما وقر في القلب من أعمال دون النظر إلى الصورة الظاهرية، والتعبير بها كناية عن المعيار

---

(١) الكهف الآية: ٨٧.

(٢) الفرقان من الآية :١٩.

(٣) الأنفال من لآية: ٧٢.

(٤) صحيح مسلم: كتاب/ الإيمان، بَابُ تَحْرِيمِ الْكِبْرِ وَبَيَانِهِ، من حديث رقم: ١٤٧ (٩١).

الحقيقي بين الناس، وكونه الباعث في الأفضلية قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(١) وفي إشارة النبي(ﷺ)إلى صدره ثلاث مرات دليل على شدة توطنها في القلب، ومدى استقرارها فيه وأن القلب إذا صار هكذا لا يظلم ولا يخذل ولا يحقر، لأن "التقوى: تشد من عقد هذه الأخوة وتستوثق من عراها. قال الله تعالى: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله} يعني أنكم إن اتقيتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه"(٢).

وثمة فرق في التعبير بقوله: (هاهنا) دون التقوى محلها القلب وذلك لما فيه من زيادة توكيد المعنى وتوضيحه؛ ولما في الإشارة من إحضار وشهود لحال الكلام، وكأن المخاطب يسمع بأذنه ويرى بعينيه فتشترك جميع حواسه في إدراك المعنى، وتتعاون معا للوصول إلى المعنى المراد(٣). كما أن في اسم الإشارة من تعلق النفس بالمعنى وتأثرها به يقول الإمام عبد القاهر: "فإنَّا نعلم أن المشاهدة تُؤثِّر في النفوس مع العلم بصدق الخبر"(٤).

وقوله: (وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) من كلام الراوي وذلك لبيان حركة النبي(ﷺ) وهيئته وتأكيد على معنى سابق وتقرير مفهومه، وعدل الراوي عن الماضي إلى المضارع "لاستحضار حالة مشاهدة السامع واهتمامه بشأنها"(٥).

---

(١) الحجرات من الآية: ١٣.

(٢) شرح المشكاة: ١٠/ ٣١٧٩.

(٣) ينظر الإعجاز البلاغي : أ. د/محمد أبو موسى ص ٣٣٢، مكتبة وهبة ، ط/ الثانية، ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م.

(٤) أسرار البلاغة: للشيخ عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ص ١٢٦، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

(٥) شرح المشكاة : ١٠/٣١٧٩.

ووجه المناسبة بين إيثار التقوى في هذا البيان ومناسبة ما قبلها وما بعدها من محاذير نهى النبي(ﷺ) عنها هي أن التقوى محلها القلب وما كان القلب محله يكون مخفيا عن أعين الناس، وإذا كان مخفيا فلا يجوز لأحد أن يحكم بعدم تقوى مسلم(١)، وكذا لا يجوز أن يحقره لأنه ربما يكون أكرم منه عند الله فكم من أشعث أغبر أفضل عند الله من متكبر جبار، وكم من عفيف شريف نقي أفضل عند الله من غيره، كما أن التقوى تشد من عضد الأخوة، وتأصلها ومن ذلك قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(٢).

وفي التعبير بقوله: (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ) كناية عن عظم الذنب الذي يقع فيه الرجل حين يحقر أخاه، وفيه معنى يلمح من توسيط التقوى لكلمتي تحقير المسلم هو أنه لا يكون الجمع بين التقوى عند الرجل وتحقيره للمسلم فالقلب الذي يحقر المسلمين قد خلا من تمام تقوى الله لأنه لا يحقر رجل رجلا إلا عن كبر، والكبر والتقوى لا يجتمعان في قلب امرئ، ومن ثم جاء هذا البيان في عقب التقوى لأنه شر عظيم يكفيه من الشر ولو لم يكن له شر غيره.

وثمة معنى رفيع في إيثاره كلمة (امْرِئٍ) دون المسلم لأن من باب أولى أن لا تقع هذه المحاذير من المسلمين، فلا يكون المسلم مسلما إلا إذا سلم الناس منه، وفي التعبير بها دون الرجل لما في التعبير بها من أدب جم واحترام مروءته يقال: المروءة أدب مخصوص(٣)، كما أن احترام المسلم وتوقيره وعدم تحقيره من زينة المرء يقال: زينة المرء حسن الأدب(٤)، وهذا يبين أنه كما أن احتقار الغير يتنافى مع التقوى فكذلك يتنافى مع مروءة المرء وحسن أدبه.

---

(١) ينظر: شرح المشكاة: ٣١٧٨/١٠.
(٢) الحجرات الآية: ١٠.
(٣) ينظر الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري: ص٣١٠.
(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٣٨٩/١.

وفي وصف هذا الاحتقار بـ(الشر) بيان لعظم هذا الذنب الذي يعصف بالأخوة، وهي كلمة جامعة لهذه المحاذير وإن كان السياق على التحقير لبشاعة الأمر إذا كان من الأخ لأخيه.

وبعد النهي عن هذه الرذائل التي تتآكل بها وحدة الأمة ويتفرق صفها جاء قوله: (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ) ليدخل تحتها كل نهي سابق ومعنى به لاحق فكل رذيلة نهي النبي (ﷺ) عنها داخلة في البيان فـ "هو الغرض الأصلي والمقصود الأولى، والسابق كالتمهيد والمقدمة له"(١)، واللاحق من هذه الخصال(دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ) من باب ذكر الخاص بعد العام، والتفصيل بعد الإجمال، وهذا من بلاغته العالية التي تؤصل الغرض المقصود وتمكنه في ذهن السامع فضل تمكن، لأن جملة (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ) استدعت السامع وأحضرت ذهنه إلى معنى يفسره هذا الإبهام.

وثمة معنى في التعبير بلفظ (كل) لأنها تأتي ويراد بها العموم والشمول، ودفع توهم الخصوص؛ لتذهب النفس كل مذهب في تأكيد حرمة المسلم، وخص النبي(ﷺ) عدة محرمات جاءت عقب هذا البيان وذلك لشدة حرمتها، وشناعتها وتغليظ عقوبتها عند الله تعالى، وعظم خطورتها في تمزق أواصر الأخوة، وقطع وشاج الود والرحمة بين الأمة، وأن ثمة خصلة منها تهدم أمة، لذا قطع النبي(ﷺ) وأد هذه البلايا.

وجاء في مقدمتها(دمه) لتغليظ حرمة الدماء، وهذا من قبيل المجاز المرسل حيث عبر بالدم وأراد النفس لعلاقة الجزئية، وفي التعبير بالدم لأنه المخصوص بإراقة النفس وهدرها وقتلها، وثنى بالمال وجمع بينه وبين الدماء بالواو لأن حرمة المال لا

---

(١) شرح المشكاة: ١٠/ ٣١٧٨.

تقل عن حرمة الدماء بدليل قوله رسول الله(ﷺ): "سِبَابُ الْمُسْلِمِ أَخَاهُ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ"(١).

وثلث النبي(ﷺ) بالعرض وهو لا يقل حرمة عما سبق بدليل مجيء الواو بينهما، وفي هذا الجمع ثمة معنى لطيف بين العرض والدماء والمال هو التنبيه على أن هتك أعراض المسلمين لا يقل خطر عن هدر دمائهم وأموالهم، وأن من استباح ذلك فقد استباح دماء المسلمين، وذلك لما في استباحة الأعراض من أمراض تشعل نار الاقتتال بين أفراد المجتمع الواحد، فجاء ذكرها عقب الدماء والمال لتنويه عليها، والتبشيع منها والتحذير من الوقوع فيها.

وبعد.... فيعد هذا الحديث الشريف بما يحمله من قيم تعالج النفس البشرية من أمراض القلوب وتنقيها حتى يصير قلبه في طريق التقوى التي ترشد إلى صلاح العبد في الدنيا والآخرة.

كما أنه ينبه المسلمين جميعا أن يكونوا أخوة متحابين تسود بينهم المودة والرحمة فيما بينهم، وأنه حرم عليهم أشياء لو حصلت في واقعهم لقضت عليهم، وإن انتهوا عنها ارتقوا إلى مقام محمود في الدنيا والآخرة.

وحدة الأمة في نصر المسلم ظالما أو مظلوما

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ): «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ»(٢).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: حديث رقم: ٤٢٦٢، درجته: صحيح.

(٢) صحيح البخاري: كتاب/ المَظَالِمِ وَالغَصْبِ، بَابٌ: أَعِنْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، حديث رقم: ٢٤٤٤.

يبين النبي(ﷺ) في هذا البيان بعضا من الحقوق الواجبة على المسلمين والتي تجعلهم أمة واحدة متماسكة تربطهم علاقة وثيقة هي الأخوة التي توجب على المرء إعانة أخيه ظالما كان أو مظلوما، فإن كان مظلوما فالواجب رفع الظلم عنه، وإعانته على ذلك بالمال والنفس وغير ذلك مما ينصر به، وإن كان ظالما فالأخذ على يده ودفعه عن ظلمه والتخلي عنه، وعدم مساندته، فذلك نصر له وللمظلوم.

وفي هذا البيان الشريف نلاحظ فيه من الأسرار ما أفصح عن مدى حرص النبي(ﷺ) على وصول هذه المعاني إلى كل فرد من أفراد الأمة المسلمة، لأنه يدور حول إعانة المسلم، ودفع الضرر والظلم عنه؛ لذا افتتح النبي(ﷺ) حديثه بجملة هي رحا الحديث وعليها دار البيان فقال: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا) والسر في هذا الابتداء هو براعة الاستهلال حيث جاءت الكلمة مناسبة للمقام توحي بما يأتي من معان بني عليها الحديث، وهذه الجملة التي هي الأم، والتي دار عليها الحوار انصر أخاك، وهي السبب في استنهاض همة الصحابة، سائلين عن مكنونها في نظم جمع السؤال والجواب، وما بينهما من تماسك في النص وترابط وتلاحم، وقد جمع هذا البناء مع وجازته بعضا من الأساليب التي أوضحت المعاني والأفكار في نظم مترابط منها الأساليب البلاغية الأتية:

بناء الحديث على نصرة المسلم أخاه بفعل الأمر (انصر) ففيه إثبات للحق مهما كان جبروت الظلم وشدته، وفيه إشارة إلى أن المسلم لا يتحول عن أخيه ولا يتركه إلا بحلول نصره، وإيثار دلالته دون غيرها لأن فيها قوة وغلبة للمسلم بأخيه، لأن النصر سيئول إلى عزة وتعظيم المظلوم، كذا التأديب للظالم وحجزه عن الظلم فذلك نصره، لأن أخلاق الظالم تعود عليه بالضرر، ومن منعته عما يضره فقد نصرته، كما أن أخذ الحق منه نصرة له.

ومجيء هذا المعنى في أسلوب الأمر الذي يراد به النصح والإرشاد إلى نصرة المسلم أخاه، وسر التعبير بالأمر في هذا المقام هو إظهار شدة الرغبة في تحقيق

النصر وإعانة المظلوم، ودفع الظالم عن ظلمه، وكأنه أمر مطلوب من كل مسلم وجد في نفسه الدفاع عن أخيه وإزاحة الظلم عنه، والتعبير بالأخوة يراد بها أخوة الدين وهي رابطة متينة، وعلامة وثيقة توجب على المسلم إعانة أخيه، ومساندته مظلوما حتى ينصره، ومنع الظالم وحجزه عن الظلم الواقع على المسلم.

ونصرة المظلوم تكون بالنفس والمال والكلمة، فإن لم يستطع ذلك النصر فالتخلي عن الظالم وعدم مساندته والركون إليه، فإن ذلك نصرة للنفس والمظلوم والظالم، فمن الأول قال تعالى: (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)(١)، فإن مجرد الركون إلى الظالم يوجب مس النار، لأن المعنى فإن ركنتم إليه مسَّتكم النار، فمس النار لا يتوجه إلى نفي الركون وإنما يتوجه إلى هذا التقدير، وأما نصرة الظالم فتأتي من عدم تماديه في الظلم، حتى لا يقوى ويشتد جبروته، ومن ثم يقوى عقابه ويشتد عليه، وأما نصرة المظلوم فلأنه لا يسلمه إلى من يظلمه ولا يدعه يهينه.

والتعبير بالطباق بين (ظالما ومظلوما) يدلي بدلوه في تصوير إعانة المسلم ظالما كان أو مظلوما وتحديد ذلك أتم تحديد دون الاقتصار على صفة بعينها، إذ الطباق طريق من طرق التصوير، ورابط معنوي يجعل الصورة متماسكة(٢)، ويضفي على النص صفة الترابط والتلاحم، وكأن الضد ممسك بطرف الآخر وآخذ بحجزه.

و(أو) هنا ليست للشك أو التخيير، وإنما هي للتنويع ومن ثم أفادت نصرة المسلم أخاه ظالما كان أو مظلوما، ويحتمل أن تكون بمعنى الواو اتماما للمعنى، وإكمالا للفائدة تأكيدا على أن إعانة المسلم لأخيه كونه ظالما أو مظلوما سواء حتى لا يقتصر الأمر على أحدهما في النصر.

(١) هود من الآية: ١١٣.

(٢) ينظر التصوير الفني في القرآن الكريم ص٨٢.

وهذا ما استنطق الصحابة استفسارا للبيان(هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟)، وهذا السؤال لا تجد معناه واضحا بينا إلا وهو ممسك بعضد الأمر في قوله انصر أخاك ظالما أو مظلوما، لأن الذي جرت به العادات هي مؤازرة الإخوان في كونهم مظلومين، أما كونهم ظالمين فهذا أمر لم تألف النفس عليه، ومن ثم استنطقوا جميعا، فالتعبير بالجمع دلالة على أن السؤال وإن كان من واحد إلا أن جميعهم ينتظر إجابته

والتعبير بقوله (يَا رَسُولَ اللَّهِ) يفيد التعظيم والتشريف لكمال العناية به، وكذا الطلب برفق وتأدب في الإسراع بالإجابة عن هذا الأمر الذي لم تألفه النفس، والتعبير باسم الإشارة (هذا) للدلالة على أن المظلوم يجب أن يكون محيطا بمن يرفع عنه ظلمه، وأن يكون قريبا منه لرفع الظلم عنه، والتعبير بالنصر باعتبار ما سيكون منهم من إعانة المظلوم وحجز الظالم، من قبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون، وفيه بيان على عدم الترك حتى النصر.

وقد جاءت إجابة النبي(ﷺ) (تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ) في عبارة موجزة حاسمة تعتمد على الطي اعتمادا على القرائن السابقة أي: إن كان ظالما تأخذ فوق يده، وقد جمعت هذه العبارة من الأسرار ما يتناسب مع المقام إذ المقام أخذ الحق من الظالم فناسبه التعبير بالجملة الفعلية المضارعة التي تدل على التجديد والاستمرار، وهذا يتناسب مع تجدد الطرق المرة بعد المرة حتى لا يتحول عنه إلا بحلول نصره، كما أن إيثاره للفعل (تأخذ) فيه قوة وغلبة وشدة، والتعبير بقوله: (فوق يده) كناية عن حجزه ومنعه ظالما، والتعبير بالفوقية، واليد مفاده القوة والاستعلاء ليتناسب مع الشدة الحاصلة في منعه عما يضره.

فإن قيل إن نصرا واقعا للمظلوم في إعانته على التخلص من الظلم الواقع عليه فكيف يتحقق النصر للظالم؟ والجواب لأن كفه عن الظلم، ومنعه عنه قد زحزح عنه العذاب في الدنيا بالقصاص وفي الآخرة بالعقاب، ومن منعته عما يضره فقد نصرته،

ومن ثم فقد أوجب هذا الحديث إعانة المسلم في كونه ظالما أو مظلوما بالنفس والمال والكلمة دون الالتفات إلى ما سيئول إليه، لأن هذا من بيئة المجتمع المسلم المتماسك وحدته فهم كاللبنة الواحدة والعضو الواحد.

هذا هو مقام النص الذي ظهر من خلال ألفاظه ومعانيه، أنه وحدة عضوية مترابطة، كل جملة تأخذك إلى التي تليها، حتى تصل في نهاية الأمر إلى المقام الماثل في ترابط المسلمين وتعاونهم.

وحدة المؤمنين كالبنيان الواحد

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ(ﷺ) قَالَ: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ(١).

هذا الحديث يحث على التضامن والتلاحم بين أفراد الأمة حتى تكون كالبنيان الواحد في التماسك والترابط والقوة والاتحاد، فالقوي يشد الضعيف، والغني يساند الفقير، حتى تعلوهم صفة التراحم فيما بينهم قال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)(٢)، فالمؤمن عون لأخيه يشد من عضده ويسانده في أفراحه وآلامه حتى تحوطهم الألفة وتشملهم الرحمة، كذا عند تداخل الأيدي اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى، فلا ترى التفاوت بين الأصابع.

هذا الحديث الشريف جمع الكثير من المعاني على وجازة لفظه، إذ هو يعتمد من أوله إلى آخره على أسلوب التشبيه الذي بدوره أضفى على النص صفه التماسك، فتراه يأتي بالكلمة الأم (البنيان)، ثم يدور حولها البيان، فيجعل ما قبلها شبيها لها،

---

(١) صحيح البخاري: كتاب/ المَظَالِمِ وَالغَصْبِ، بَابُ نَصْرِ المَظْلُومِ، حديث رقم: ٢٤٤٦، وصحيح مسلم: كتاب/ البر والصلة والآداب، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، حديث رقم: ٦٥ (٢٥٨٥)، واللفظ للبخاري.

(٢) التوبة من الآية ٧١.

وما بعدها منتزعا من صفاتها وأحوالها، حتى ترى المؤمن وهو يشد بعضد أخيه كاللبنة في البنيان، فالتمسك النصي ظهر من خلال الصورة البيانية التي تقرب المعنى في ذهن السامع وتوضحه، لأن الحديث عن وحدة المؤمنين وتماسكهم، فتجد التلاحم والترابط بين اللفظ ومعناه.

وأول ما يطالعنا هو قوله(ﷺ) (المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ) تلك الجملة التي جمعت من ضروب البلاغة ما يتيح لها من بيان المعنى في نفوس المخاطبين و أسماعهم وهم في قمة الإصغاء، فأتى بصورة التشبيه المفصل حيث شبه حال المؤمن مع أخيه المؤمن في تعاونه وقوته ومساندته له بالبنيان من حيث إنه يشد بعضه بعضا على وجه الترابط والتماسك، ودلالة التشبيه تكمن في أنه أخرج المعنى الخفي المعقول في صورة محسوسة واضحة جلية أمام الأعين، تلك الصورة المشتركة بين المؤمن مع أخيه والبنيان، أوقع في القلوب وأثبت في النفوس؛ لأنه رفع الأستار عنها في وصف واضح مشهود مشترك بينهما وهو التماسك والترابط والتلاحم، وهذا الوصف الثابت في التشبيه فيه من الألفاظ التي تقرب المعنى في الأفهام حتى يقف السامع عليها دون شرح أو تفصيل مع "الإيجاز في اللفظ والإصابة في المعنى وحسن التشبيه"(١).

وأنه(ﷺ) لما رأى نفاسة الصورة ومناسبتها قائمة في المشبه به صورها؛ لأن البنيان ممسك بنفسه مترابط مع أجزائه كل لبنة تشد الأخرى حتى يكتمل أركانه، كذلك المؤمنون يجب أن يكون على هذا الوصف، والخلق الرفيع ابتغاء مرضاة الله – تعالى–ومن ثم تحقق فيهم قوله: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)(٢)،

(١) الأمثال في الحديث النبوي: للحافظ الأصفهاني، تحقيق. د/ عبد العلي عبد الحميد حامد، ص١٨، الدار السلفية بومباي، ط/ الثانية، ١٤٠٨هـ.
(٢) التوبة من الآية ٧١.

فإذا أصاب المؤمن مصيبة شعر بها وآلمته هذه المصيبة، كالبنيان الواحد إذا هدم جزء من أركانه تساقط ولم تألفه الناس للسكن والعيش فيه.

وأل في قوله: (المؤمن) قيل: للجنس، والمراد بعض المؤمن للبعض(١)، وقيل إن الحكم يشمل كل مؤمن، والأظهر أنها للعهد الزهني في الأول، وللجنس في الثاني أي: المؤمن الكامل لمطلق الإيمان(٢)، وقوله: (الأظهر) أي: أن الأفضل لمناسبة البنيان في السياق، لأن كل لبنة تمسك بالأخرى حتى يكتمل البنيان، إذ لابد من التعاضد والتكاتف مع الأخرين حتى يتجسم الجمال والكمال بين المؤمنين، ومن ثم فالحكم قائم بينهم دون غيرهم، بدليل مجيء اللام في قوله (للمؤمن) والتي أفادت الاختصاص.

وفي تعريف المسند إليه بأل إفادة التعظيم من شأن المؤمن وعلو مكانته، والإيماء بأن كل من تجرد من هذا الوصف الماثل في التشبيه لا يستحق أن يصل إلى درجة الإيمان الكامل، والتعبير بالخبرية الماثلة في الاسمية لتأكيد دلالتها وتقوية مضمونها لدى السامع، وذلك لثبوت صفة الإيمان وما يترتب عليها من أخلاق ومعاملات بين المؤمنين، وقيل: إن الجملة الأولى خبرية لفظا طلبية معنى أي: ليكن المؤمن للمؤمن كالبنيان، وجيء بالطلب على صورة الخبر تنبيها على أن هذا المطلوب هو الشأن الذي لا ينبغي أن يكون سواه بحيث يخبر عنه لا أن يطلب(٣).

وعليه فالتعبير بالإنشائية ليدل على أن هذه الحقائق مطلوبة ومأمور بها عند كل مؤمن، والتعبير بالخبرية أولى في هذا السياق لدلالة الثبوت والدوام، لأنه يتحدث

---

(١) شرح المشكاة للطيبي: ١٠/ ٣١٧٦.

(٢) مرقاة المفاتيح: ٧/ ٣١٠٢.

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي: ص ٩٧، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

عن توحيد صفوف المؤمنين وتماسكهم وقوتهم، فأرى أن الجملة باقية على أصلها دون التأويل، الغرض منها إرشاد المؤمنين أن يكونوا متماسكين تماسك البنيان، ومجيء الإرشاد في صورة الخبر له نكتة البلاغية وهي استشعار الامتثال لهذا الوصف الماكن في التشبيه، وكأنه واقع يخبر عنه، وإيثار البنيان هنا دون غيره لأن القصد إلى القوة والتماسك فكما أن البنيان لا يعلو ولا يقوم بمفرده فكذلك المؤمن، ومن ثم أتى النبي(ﷺ) بالجملة الاستئنافية (يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) لبيان التقريب الماثل في التشبيه إلى الإفهام، حتى يفهم منه التضامن والالتحام حتى يكون كالجسد الواحد، فأتى بتشبيه المعقول بالمحسوس الماثل أمام الأعين من حيث إنه أدخل أصابعه اليمنى بين أصابعه اليسرى، وأصابعه اليسرى بين أصابعه اليمنى؛ مبالغة في التلاحم وزيادة في توكيد المعنى، وتقرير ذلك في النفوس؛ لما في الإشارة من الإشهاد على تطبيق المراد من هذا الوصف أمام المخاطب؛ ليظل المعنى عالقا في النفوس.

والتعبير بالشد يوحي بقوة المجتمع المؤمن وحدته وتماسكه، ومجيء ذلك في صورة المضارع ؛ ليفيد التجدد والاستمرار، والتعبير بتشابك الأصابع اليمنى واليسرى للإيحاء بعدم تفرق وحدتهم ومساواتهم في التلاحم والتماسك فالكبير يساند الصغير، والغني يعطي الفقير، والعالم يحلم على الجاهل، وغير ذلك من اختلاف طبقات المجتمع حتى يشعر كل واحد بارتباطه مع غيره وحاجته إليه كذلك أصابع اليد، وإن كان بينهم التفاوت إلا أنك لا تراه إلا وهم على هذا الوصف.

وهذا ما وصف الله تعالى به هذه الأمة (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)([1]) فالأمة الواحدة تتطلب الاتحاد بين جميع أفرادها على أكمل وجه، وهذا ما قرره الحديث الشريف وأكد عليه حتى يتقوى المؤمن بأخيه في أمور دينه ودنياه.

---

(١) المؤمنون آية ٥٢.

وعليه فإن هذه الألفاظ الواردة في البيان قد تلاحمت في وحدة عضوية متماسكة ومتشابكة تشابك الأيدي حتى أضفت على المقام صفة التلاحم والترابط بين المؤمنين كالبنيان الواحد، ومن ثم آثر النبي(ﷺ) من الألفاظ ما يتناسب مع تماسك النص تماسك المعنى.

المؤمنون جسد واحد

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ(ﷺ)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(١).

هذا الحديث الشريف يبين وحدة المجتمع المسلم وتماسكه وتعاونه ومشاركته مع بعضه البعض، كوحدة الجسد الواحد الذي يضره ويؤلمه إصابة عضو منه، وقد بدأ الحديث بقوله: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ...)فيصف العلاقة والصلة بين المؤمنين تلك العلاقة التي تقوم على الود والرحمة والتعاطف فيما بينهم، وتظهر صورة التماسك النصي في هذا الخطاب الموجه من النبي(ﷺ) للامة في صورة التشبيه التمثيلي، والذي جاءت أركانه متماسكة ومتقاربة؛ لتخرج صورة المجتمع المؤمن في صورة الجسد الواحد، وجاءت بعض الأدوات التي تظهر حاجة السامع إلى الكشف عن مكنون النص وازاحة الستار عن البيان فجاء بـ(مثل) والتي معها يترقب السامع مجيء البيان، فتجد تناسبا وتناسقا بين أجزاء الكلام، كما أن مجيء المشبه به في لفظ الجسد، وإيثار الشرط فيه يجعل السامع يترقب الوصول إلى نهاية البيان حتى تجد كل لفظة وهي ممسكة بحجز أختها، فإذا حذفت أو بدلت خرجت عن المقام

---

(١) صحيح البخاري: ك/ الأدب، بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ، حديث رقم: ٦٠١١، صحيح مسلم: ك/ البر والصلة والآداب، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، حديث رقم: ٦٦ (٢٥٨٦)، واللفظ لمسلم.

المراد بيانه، ومن المرتكزات البلاغية التي تعاون على شدة التماسك في النص، الابتداء بهذه الأداة (مثل) التي تقرب المشبه والمشبه به للسامع في صورة تمثيلية مشاهدة واقعة في عالم الناس، حيث شبه النبي(ﷺ) المؤمنين في ترابطهم وحبهم وتعاونهم بالجسد الواحد، في الترابط والتعاون فيما بين أعضائه، والذي تألم كله لألم بعضه، ووجه الشبه الترابط الشديد حتى إن ضرر أحدهما يؤثر في الآخر ويضره.

وثمة معنى جليل وراء التعبير بالمؤمنين للدلالة على أن هذه الصفات (التواد، والتراحم، والتعاطف) من سمات المؤمن، ولا يكون المسلم مؤمنا حقا إلا إذا اتسم بتلك الصفات، وذلك تصور لصورة المجتمع المؤمن دون غيره، فالنبي(ﷺ) يصور صورة المجتمع المؤمن وقد تجلت فيهم هذه الصفات وتمكنت منهم تمكن الظرف في المظروف ولا أدل على ذلك من استعمال حرف الجر (في)، كما أن التعبير بالمؤمن في البيان يقتضي الإيمان بالعمل بتلك الصفات التي تقرر الأخوة، وتظهر مجتمعا مترابطا قويا يساند بعضه بعضا، وإن التقصير فيه تقصير في معاني الإيمان، لأن التهاون فيها يجعل المجتمع متفرقا يسوده الضعف والهوان ولا يكون المجتمع المؤمن في وحدته وقوته إلا بهذه الصفات.

واستفتح البيان بضرب المثل للمؤمنين يجعل كل من وصف به، واستظل بظله يعيش بين إخوانه كريما في جميع شئون حياته، فالإيمان يشد من أواصر المودة والمحبة، ويدفعهم بدافع العقيدة الإيمانية التي ألفت بين قلوبهم حتى جعلتهم كالجسد الواحد، وظهر التمسك النصي جليا في مجيء هذه الخصال الثلاث على وزن التفاعل التي تدل على الاحتفاء والاحتشاد بكل صيغة، والتأكيد على التفاعل والتشارك والتلاقي بين المجتمع المؤمن، ومجيء النظم على هذا الأسلوب دون أن يقال: في التواد والتراحم والتعاطف؛ للدلالة على روح التواصل والتبادل والمحبة فيما بينهم.

وذكر الحديث الشريف الخصال الثلاث دون الاكتفاء بخصلة واحدة لبسط المقام عن المجتمع المؤمن وقد بلغ مبلغا في التواصل والتراحم، وهذه الخصال من بيئة

واحدة هي بيئة صلة الرحم بين المجمع المسلم، وهذا من قبيل مراعاة النظير، فالتواد أخو التراحم وهما أخوان للتعاطف، وهذه المعاني صورة لقلوب المؤمنين اقتربت وتآلفت مع بعضها البعض في كلمات تقاربت وتساندت في مبناها حتى توافقت في معناها، وهذا ما يتناسب مع مقام الوحدة والتقارب بين المجتمع، ومن ثم ناسب اللفظ معناه ومقامه، حيث تجد رحما جامعة بين الألفاظ والمعاني، هي صورة لواقع المجتمع المسلم.

وهذه الخصال وإن تقاربت في معناها إلا أنك تجد فرقا لطيفا بينهما، فالود مصدر المودة وهي الحب، والتراحم القصد منه الرحم، والرحمة والرفق والتعطف([1])، والتعطف البر والرق، فأنت ترى المعاني اللغوية قد تداخلت مع بعضها البعض إلا أن تقديم بعض المعاني على بعض أضاف فرقا لطيفا بينهما، حيث بدأ(ﷺ) بأول الخصال وهي التواد، وهو الحب الماكن في النفس بسبب أخوة الإسلام، ومن خلاله يتحقق التزاور والصلة، فإذا تحقق الود بين المجتمع نشأ منه التراحم، ومن ثم بدأ بالود لأنه أول مراحل التقرب من المؤمنين، فإذا تحقق كانت الصلة والبر والتراحم والتزاور، وهو ما يترتب على الخصلة الثانية التي إذا تحقق وقوعها دفعت المرء دفعا إلى المشاركة نحو المؤمنين من جلب الخير لهم، ودفع الضرر عنهم، وهذا هو التعاطف مع قضايا الأمة، حيث إذا وجده المسلم وجد في نفسه الرغبة إلى المساندة والمعايشة مع أخيه حتى يخرجه من ضرره ونصبه، وهذه الغاية المرجوة من البيان.

والنبي(ﷺ) أراد أن يصور وحدة المجتمع المسلم بصورة خاصة في عقل المتلقي تظهر شدة التلاحم والترابط فآثر التشبيه التمثيلي، حيث شبه المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم بالجسد الواحد الصحيح الذي إذا اشتكى عضو تألمت جميع أعضائه، فلم يذق طعم الراحة والنوم، كذلك المؤمنون إذا أصاب أحد منهم نائبة أو

---

(١) لسان العرب: ودد، ورحم.

مصيبة تألم الجمع وشعر كل واحد منهم بهذه المصيبة، فسعوا في تهوينها بالود والتراحم والتعاطف حتى تطرد عنهم طردا، ووجه الشبه بينهما شدة التداخل والتوافق في سائر أحوالهم حتى إن ضرر أحدهم يؤثر على الآخر ويؤلمه.

ودلالة التمثيل تكمن في أنه أخرج المعنى الخفي المعقول في صورة واضحة معروفة، ومن ثم كان المعنى المصور أوقع وأوضح، لأنه كشف الأستار في الوصف المشترك بين المشبه والمشبه به، وهذا السر من دلالة أداة التشبيه (مثل) إذا جعلت كلا الطرفين كالشيء الواحد مع الإصابة في المعنى وحسن التشبيه، وهذا هو عين تمسك النص وعضد ألفاظه.

وأرى أن هذا التشبيه التمثيلي من بلاغته العالية الوصفة للمجتمع المسلم المتماسك، ولا تجد أقرب رحما ولا أدل بيانا من شدة القرابة بين المؤمن وأخيه من هذا التشبيه الواصف لشدة الترابط والتلاحم بين المجتمع الواحد في صفات مشتركة بينهما من الود والتراحم والتعاطف، حيث نقله من معقول إلى محسوس لتقريب المعنى في ذهن السامع.

وشرع النبي(ﷺ) في بيان شيء آخر يقرر أنه لما أتى بالمشبه به (الجسد) وإيثاره دون غيره فقال(إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ) والشكاية لا تكون من العضو نفسه، إنما تكون من صاحبه، وإنما آثره للمجاز العقلي في علاقة السببية، وفي الإسناد ما يثير خيال السامع نحو هذا العضو المصور وهو جاهد نفسه فاعل لأمر الشكاية، إذ أنه يخرج ما يشعر به ويؤلمه حتى صار كأنه الفاعل الحقيقي، فتألم الباقون لألم هذا العضو فكذلك المؤمنون.

وأرى أن إيثار كلمة تداعى دون دلالتها مثل احتشد وتهاوى واجتمع ما يقرر وحدة النص، وترابط أجزائه، حتى إنه قد عبر بها؛ لتناسب شدة المقام والتقارب بين ملائمة المراد؛ لتقرر حال المجتمع في حالة الإصابة والشكاية، لأن في إيثار قوله

تداعى من بين دلالتها؛ للاستجابة السريعة والتلبية العاجلة لجميع أعضاء هذا البنيان دون الاقتصار على عضو بعينه، وذلك لتلبية ونجدة هذا العضو الشاكي، كما أن صيغة التفاعل تدل على المشاركة والتفاعل، فهذا العضو الذي استجاب ولبى قد حمل شكاية هذا الداعي معه، وتألم لألمه وهمه من أجل ذلك هم وعزم لإزاحة هذا الضرر.

وشيء آخر يدعم ما سبق هو الإتيان بقوله (سائر) التي تفيد الكل دون تراخي عضو أو تقاعسه، فدلالة هذه الكلمة توحي بأن الكل يتألم، والكل يشارك، والجميع يتضامن مع المصاب، وهذا هو المراد من معاني البيان، فالود والتراحم والتعاطف نحو المؤمنين هو الذي يدفعهم دفعا إلى دفع الضرر عنهم، وجلب الخير إليهم، أما الفرح والسرور لوقوع المؤمنين في الأذى والضرر، فليس من أخلاق المؤمنين، إنما ينسلخ من صفات الإيمان الثابتة في البيان، فالمؤمن يفرح لأخيه ويحزن لحزنه ومصابه.

وقوله (بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) من بلاغته(ﷺ) العالية، إذ ناسب اللفظ المقام، فأنت لا ترى كلمة معبرة عن المراد دالة على مضمون الكلام من كلمة السهر والحمى، فإذا بدلت أو غيرت إحدى اللفظتين ضاع المعنى بضياع هذا النظم، فكلمة السهر تدلي بدلوها في هذا المقام من حيث إنه لا يستريح له جسد ولا يخضع لنوم حتى يطرد عن أخيه هذه الشكاية طردا، وكلمة (الحمى) تفيد أنه أصابه ما أصاب أخيه من ألم وشعر به، فالتحرك والمشاركة الإيجابية نحو المطلوب، وتقديم السهر على الحمى يفيد أن الحمى ناتجة عن كثرة السهر، فقد اعتل الجسد ومرض نتيجة السهر وعدم الراحة.

وبعد.... فقد وصف رسول(ﷺ) هذه الوحدة بالجسد الواحد وبيان أن هذه الأمة أمة واحدة كالجسد، ومن ثم يَتقرر فيهم أخوة الإسلام ورحمه.

رضا الله والاعتصام بحبله يجمع الأمة ويوحد صفها

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(ﷺ)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): "إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ"(١).

في هذا الحديث الشريف يبين النبي(ﷺ) أن رضا الله في إتباع أوامره، وتجنب معاصيه، وأول هذه الأوامر هي العبودية لله الواحد والإذعان والانقياد لطاعته، والتمسك بعهده وشريعته، والاعتصام بدينه جميعا غير متفرقين، وبهذا تتم نعمة الله عليهم، ويحلل عليهم رضاه، وفي المقابل يأتي غضب الله وسخطه على من وقع في نهيه وارتكب معاصيه، وفي البيان تحذير منه(ﷺ) من القيل والقال، وكثرة الكلام في غير إفادته، والخوض في أعراض الناس، وكثرة سؤالهم، وتعطيل مصالحهم، وإضاعة أموالهم في غير منفعة.

اعتمد هذا الخطاب النبوي على بعض من المرتكزات البلاغية، والتي ظهرت من خلالها وحدة النص وتماسك نظمه ووحداته، حيث بناه من أوله إلى أخره على أسلوب الإجمال والتفصيل، والإيضاح بعد الابهام، كما أن بناء الحديث على التضاد يبين شدة تلاحم البيان، وإصابة تراكيبه، لأن التضاد رابط معنوي يجعل الصورة متماسكة، فضلا عما يحدثه من تناسق صوتي بديعي ينسجم مع دلالة المقام وقوله: (إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا) نلاحظ في هذا الاستفتاح أنه(ﷺ) جمع في هذا البيان بين عدة مؤكدات منها: الاستفتاح بأم أدوات التوكيد، والجملة الاسمية بما تفيده من ثبوت ودوام، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي؛ لتقرير المعنى وتوكيده

(١) صحيح مسلم: كتاب/ الأقضية، بَابُ النَّهْيِ عَنْ كَثْرَةِ الْمَسَائِلِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَالنَّهْيِ عَنْ مَنْعٍ وَهَاتِ، وَهُوَ الِامْتِنَاعُ مِنْ أَدَاءِ حَقٍّ لَزِمَهُ، أَوْ طَلَبِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ ، حديث رقم: ١٠ (١٧١٥).

في نفوس السامعين، أو تفخيم المعنى في ذاته لأن هذا الكلام له مقام عنده(ﷺ)، لأن مضمون الكلام عن رضا الله وسخطه، فلما كان الخبر عن هذا المضمون جاء النظم مؤكدا لأن المقام يحتاجه لمكانته ومنزلته عنده(ﷺ).

ومجيء البيان على هذا النظم (إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا)دون الاستفتاح بالخصال من أول الأمر كأن يقال: اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا...، واحذروا قيل وقال...، فرق كبير بين هذا الطريق، والذي عليه البيان، وذلك من جهة إقبال النفوس، وحرصها على مرضاة الله–سبحانه وتعالى–وإعراضها ونفورها عما يكرهه، كما أن الطريق ليس فيه الأمر المباشر ولا النهي المباشر، وإنما فيه ما يرضي الله ويكرهه؛ ليضع النفس أمام أحد الأمرين فتختار، وهذا من معدن الكلام، لأن البيان بنى على حس المؤمن وترك الأمر والنهي اعتمادا على هذا الحس([1])،وهذا ما يبين أن الشرف كان لأن سلك هذا المسلك، وتوخي به هذا المذهب، ولا تجد فخامة التماسك بين النص إلا وهو مقرون بضده يرضي ويكره.

كما أن مجيء البيان على هذا الطريق حمل العديد من ألوان التشويق والتطلع إلى ما يرضي الله، وما يكرهه، فمجيء النظم على سبيل الإجمال جعل السامع يترقب الافصاح عن التفصيل، وتستشرف نفسه إلى الإيضاح عن الخصال الثلاث وهذا من فصيح كلامه، وحسن بيانه، حيث هيأ السامع وأعده فإذا جاء بالنظم وجد نفسا قد ضاعفت اليقظة، وترقبت الوصول إلى المراد فيكون ذلك أدعى للمقام، فـ" جملةُ الأمر أنه ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له"([2]).

---

(١) ينظر شرح أحاديث من صحيح البخاري: محمد أبو موسى: ص٤٥٩، ٤٦٠.
(٢) دلائل الإعجاز: ص١٣٢.

واقتصار الرضا والقبول على ثلاث خصال من قبيل سبعة يظلهم الله في ظله، فليس المراد العدد، وإنما القصد إلى الخصال، وجاء التنبيه هنا لأنها الأصل الذي يقوم عليه الدين من حيث العبادة لله، والاعتصام بحبله، وعدم التفرق بين المؤمنين، وأن كل خصلة فيها رضا الله تخرج من رحم ما سبق، وفي التعبير لون من ألوان الإطناب وهو التوشيع حيث أتى في أول الكلام بجمع ثم جاء بنظم مبين ومفسر لهذا الجمع، وعين هذا النظم هو أسلوب الجمع مع التقسيم.

واستفتاح البيان بذكر رضا الله كان بمثابة الاستهلال البارع الذي استقطب فكر المتلقي، واستدعى انتباهه من أول وهلة، فالكلام عن رضا الله، ووعده بالمغفرة والرضوان، فهذا العطاء الجزيل الذي لا يستطيع اللفظ وصفه والعقل إدراكه إذا صدر في أول الحديث استقبلته النفوس بقلوب شجية متلهفة للكشف عن العمل الموصل لهذا الثواب.

والتعبير بالرضا من قبيل الكناية، فالرضا عن الشيء يستلزم الأمر به، والأمر به يستلزم الرضا، وكذا الكلام في الكره(١)، أو يكون من قبيل الاستعارة التصريحية، حيث عبر عن إرادة الثواب والمغفرة بالرضا، والعقاب بالكره، وفي تقديم الرضا عليه من تقديم الأهم والأقرب إلى نفس المؤمن، فالرضا هو ملاذ المؤمنين الصادقين، وفيه إشارة إلى أن الرضا هو المطلوب وهو الأمر المرغوب فيه.

وفي إيثار اللام في لكم ولم يقل يرضي عنكم؛ إشارة إلى أن فائدة كل من الأمرين عائدة إلى عباده(٢)، وفي التعبير بـ(إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا) جمع بليغ بين الترغيب والترهيب، والرضا والكره؛ ليضع النفس أمام الطريقين الهداية

---

(١) ينظر شرح الزرقاني على الموطأ : ٦٥٢/٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق : ٦٥٢/٤.

والرشاد، أو الكره لأهل خصال السوء، ومن أول الأمر، وجاء بالمضارع لاستحضار الصورة أمام السامع، فإذا ما فعلوا ذلك رضي عنهم وأثابهم، وإذا خالفوا أمره عاقبهم وأنزل عليهم سخطه وكرهه.

وشرع البيان في خصال الرضا، وكرر مع الخصال الرضا فقال (فَيَرْضَى لَكُمْ) لتمييز كلا الأمرين عند نفس المتلقي، وجاءت بالفاء؛ للبيان التوضيح والتفسير، وأما عن الأفعال التي تستوجب رضا الله تعالي فهي ثلاثة أفعال(أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)، نتج عنها الرضا، وهذا وعد قاطع لا محالة، وتأمل كيفية الاستفتاح بها، حيث بدأ برأس الأمر وأصل وحدة المجتمع، وبه تجتمع الأخوة، وتتوحد الشعوب ويساند بعضها بعضا، والتفريط فيه يعود بالأمة إلى الجاهلية فتتفرق وتتفتت وحدتها، ويذهب ريحها، ومن ثم فعدم التمسك بالعقيدة وبتوحيد لله وعبادته فيه سبب ضياع الأمة، وضعفها وانهزامها أمام غيرها من الأمم، فتصبح على شفا جرف هار، ومن ثم جاء في صدر الأفعال إذ به يتوصل إلى كل خصلة من خصال الرضا، ومجيء البيان بأفعال الرضا في صورة المضارع؛ يعضد من صورة التماسك النصي في النظم، فصورته صورة المضارع المتجدد؛ لاستحضار هذه الأفعال وهذا يبعث قوة العقيدة في النفس، فاستحضار العبد كونه عبدا لخالقه في كل وقت يشير إلى الطاعة التامة والامتثال لأوامر والبعد عن واهيه، وهذا يجدد الإيمان ويصرفه عن الشرك، واستحضار الاعتصام والوحدة وعدم التفرق يضاعف قوة الأمة ويجدد همتها، ويمكّن وحدتها.

وجاءت جملة أخرى أخذة بحجز الأولى تشمل على معناها؛ لتدلي بدلوها في بيان استمساك النص حيث قال (وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) فيه إشارة إلى الثبات التي حققته الجملة الأولى (أَنْ تَعْبُدُوهُ) وجاء بالمضارع ليستحضر العبد كونه عبدا لربه في كل وقت حتى لا يتسرب إليه الإشراك، وهذا ما أكدته النكرة الماثلة في قوله(شَيْئًا) والتي أضفت إليها صفة العموم والشمول؛ لتشمل جل الأشياء التي يتسرب بها

الإشراك، وهذه جملة حالية مؤكدة لمعنى الجملة الأولى، وجاءت في إثرها في كل بيان وكل حديث، لأن الإشراك بالله "المعول الذي يحطم كل قيمة من قيم هذا الدين"(١)، والتقييد بالجار والمجرور (به) زيادة في تقبيح من وقع في الأشراك.

وجاءت جملتان خرجتا من رحم الجملة الأولى لأن قضية التوحيد والعبادة لله الواحد، وتحقيق الأيمان بكل معانيه، والالتزام بشروطه والابتعاد عن نواقضه، الضمان الوحيد لترابط المجتمع واحترام حقوقه، فالإيمان بالله هو الذي يبعث الحب في الله والود بين الإخوان، وهذا هو المحرك الذي يجعل المجتمع وحدة واحدة كالجسد يتألم كله لألم عضو منه، عند ذلك يصبح المجتمع المسلم متماسكا مترابطا قويا صامدا على عدوه، قادرا على أداء مهامه، هذا بخلاف المجتمع الذي لا يقوم على الإيمان بالله والعبادة له، فهو مجتمع مظلم متوحش، وإن بدت فيه الزينة الزائلة والزخرفة المتصنعة، فهو مجتمع البقاء فيه للأقوى، لا مكان فيه لضعيف ولا فقير، انتشرت فيه الرذائل، وتوحش فيهم حب الشهوات فهم كما قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)(٢)، ومن ثم فالعبادة الصحيحة جامعة لكل عبد وصف بها وصار من أهلها حتى أصبح الاعتصام صفة ماثلة بينهم، ومن ثم فقد رأيت التمسك والرابط بين نظم الكلام، وتمام وحدته، وترابط معانيه؛ ليضفي على المقام المراد منه.

وقوله: (وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا) أي التمسك بعهده واتباع كتابه، والتزام شريعته وطاعته وتقواه(٣)، وفيه تأكيد على ما اشتملت عليه الجملة الأولى من المداومة على العبادة لله، وآثر الاعتصام دون غيره من الألفاظ؛ ليبرهن على أن

---

(١) من بلاغة الحديث النبوي : د/ محمد أحمد سحلول: ٦/٣، دار الاعتصام بالقاهرة، ١٩٩٩م.
(٢) محمد من الآية: ١٢.
(٣) إكمال المعلم: ٥/ ٥٦٨.

التمسك بشرع الله فيه الهداية والنجاة إلى طريق مستقيم قال تعالى: (وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(١)، كما أن عصم الشيء أي: طلب ما يعتصم به فيمنع من السقوط والوقوع(٢)، وفي التمسك بشرع الله الوحدة والاعتصام والألفة بين أفراد الأمة وهذا إقرار من الله تعالى (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ)(٣) وهذا الاقتباس من القرآن يؤكد هذا المعنى، ويجعل العبد يتذكر نعم الله عليه، فبعبوديته تألفت القلوب وتحابت، وصاروا إخوانا متحابين بعد أن كانوا متفرقين على شفا جرف هار، ومجيء الاعتصام على باب الافتعال يجعل روح الجماعة حاصلة بين أفراد الأمة يجمعهم هذا الدين الذي هو الرابط المتين فيوحد كلمتهم ويجمع شملهم، ولا أدل على ذلك من إيثار قوله (جميعا) وهذا إشعار بوحدة الأمة وترابطها.

وفي مجاورة الاعتصام حبل الله وتسمية شرع الله بالحبل فيه " تمثيل لاستظهاره به ووثوقه بحمايته، باستمساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه"(٤)، وعليه فهذا من باب المجاز المتمثل في الاستعارة التمثيلية حيث شبه تمسك المؤمنين بشرع الله وعهوده، بهيئة المتدلِّي الممسك بحبل وثيق يأمنه من الانقطاع وينقذه من الهلاك، ويهديه إلى الطريق المستقيم، وقد أوضحت هذه الاستعارة طريق النجاة للمسلمين حين تمسكهم بحبل الله وشرعه المتين.

وفي لفظ الاعتصام استعارة تصريحية حيث شبه التوثيق والتمسك بالدين والحفاظ عليه، وعدم الانفصال والانقطاع عنه بالاعتصام، ولا تكاد تجد هذا اللفظ إلا وهو رابط متين بين الدين وأهله؛ ليبين شدة حاجة الناس إلى دينهم الذي يجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم.

---

(١) آل عمران: ١٠١.
(٢) لسان العرب، تاج العروس: عصم.
(٣) آل عمران: ١٠٣.
(٤) الكشاف للزمخشري: ١/٣٩٤.

ويأتي جمال الصورة في أنه يظهر منزلة هذا الدين وهو ممسك بأهله يقودهم إلى طريق مستقيم ويستقر بهم في مكان أمين.

وجاء بعد الاعتصام بكلمة تحمل ضدها توكيدا لها فقال (وَلَا تَفَرَّقُوا) توجيه للتمسك بحبل الله المتين، وترك كل أسباب الفرقة التي توهن الأمة وتذهب بريحها، وجاء النهي عن كل ما يفرق وحدة الأمة، ويعكر صفوها، في صورة التضاد بينه وبين الاعتصام؛ ليحرك النفس نحو كل شيء يحافظ على جماعة المسلمين وألفتهم، وقطع دابر الفرقة التي تترتب عليها ضعف الأمة، وليضع القارئ على أن التمسك بحبل الله وعدم التفريق فيه سر قوة الأمة، وجمع صنوفها، وتحقيق وحدتها، وعدم التمسك به يذهب بالأمة إلى الهاوية أو إلى مكان سحيق، ويضعف قوتها، ويفرق شملها حتى تصبح شيعا متفرقة قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)(١).

ومما يظهر شدة التمسك النصي في هذا الخطاب قوله عن الخصال التي تستوجب الكره قال(ﷺ) (وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ) فجاءت على حذو ما سبق لما فيه من التوكيد، والعناية به حتى يضع النفس أمام الطريقين الرضا والكره، فتسلك طريق النجاة، والفوز برضا الله، ولتبعد عن سخطه وغضبه، وأول هذه الخصال (قِيلَ وَقَالَ) وهي أفة المرء، وطريق هلاكه، وأول أمارات الكذب، لأن كثرة حديثه وتقوله على الخلق، وعدم تثبته بما قاله يجعله يتخبط في أعراض الناس، والمسلم في بعد عن هذا، لأن هذا الإفك الذي دار عليه حديثه دون وجه حق قد جعله يُلْقي سمعه إلى القيل والقال حتى روج له، وانقطع عليه فصار عند الله من الكذابين قال تعالى: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(١)، ومن ثم التصقت هذه اللفظة بكره الله للعبد، وتقدمت على هذه الخصال لأنها من شأنها أن ينتج عنها كثرة السؤال، وإضاعة المال.

و(قيل وقال) كناية عن كثرة الحديث، ونشر أخبار الناس دون تثبت أو تحقق، والكناية تثبت لك انقطاع هذا الرجل إلى كل قول فيتشبث به دون دراية له.

وقد ثنى النبي(ﷺ) بخصلة (كَثْرَةَ السُّؤَالِ) وفيه تأويلات أنه من سؤال الناس ما بأيدهم، وقيل يحتمل النهي عن كثرة السؤال والتنطع في مسائل لم ينزل فيها حكم، أو أن يكون سؤال الرجل عن أحوالهم وتفاصيل أمورهم فيدخل ذلك الحرج إما يكشف ما لا يريدون كشفه، أو الكذب والتعريض لستر ذلك الحرج(٢)، وعليه فالذي أدخل كل هذه الاحتمالات هو حذف المسئول عنه، وقد رجحت رأيا من بين هذه الآراء هو الإلحاح وطلب المرة بعد المرة، وتكرير المسألة بعد المسألة، وقد بين النبي(ﷺ) في حديث آخر أن من يضمن له عدم المسألة فقد ضمن له الجنة قال(ﷺ): "مَنْ يَضْمَنُ لِي وَاحِدَةً وَأَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ؟" قَالَ: قُلْتُ: أَنَا. يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: "لَا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا"(٣)، وهذا يشير إلى حفظ ماء وجه المسلم من ذل السؤال، وقد قيل:" لا تحسَبَنَّ المَوْتَ مَوْتَ البِلَى ... وإنما الموتُ سُؤالُ الرجالْ. أراد أن في السؤال كراهة ومرارةً مثل ما في الموت، وأن نفس الحرّ تنفِرُ عنه كما تنفر نفوسُ الحيوان جملةً من الموت، وتطلبُ الحياةَ ما أمكن في الخلاص منه،"(٤).

---

(١) الشعراء آية: ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٥/٥٦٩.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: حديث رقم: ٢٢٤٠٥.

(٤) أسرار البلاغة: ص٨٠

وثلث بقوله (إِضَاعَةِ الْمَالِ) أي بصرفه في غير وجوهه الشرعية، وترك إصلاحه وكسبه وتعرضه للتلف(١)، واللفظ مجاز عقلي لأن المال لا يضيع وإنما المسبب لذلك صاحبه، وصورة المجاز مع إضافة الضياع تبين قوة زوال هذا المال، وتلفه وكثرة أسباب زواله حتى لم ينسب لسبب معين، ومن ثم فخصال الكره جاءت على وتيرة واحدة، كل خصلة وبلية تأخذك إلى التي تليها، في نظم آثر العطف فيه بالواو؛ لشدة التماسك النصي والتقارب والتشريك بين هذه الخصال، لأنها من بيئة واحدة، والمتأمل في البيان يجد أن كلمة الرضا جمعت تحت ظلها خصالها في بيان يمسك بعضه بعضا، والكره في نظم تجمع وحدته عدة أساليب أسهمت في بناء هذه الوحدة النصية.

ومما لا شك فيه أن خصال الرضا تقرب وحدة الأمة، وتجمع شملهم، وتوحد صفوفهم، وأما خصال الكره فهي كفيلة أن تهدم أمما، وتفرق شملهم، وتجعلهم شيعا وأحزابا متفرقة، وانشغال الأمة بهذه الخصال يهدم جدرانها، ويضعف شوكتها، لأنها تفتح لها معارك ضارية طاحنة بين أفرادها، فتحصل بينهم الفرقة والتدابر والتقاطع والتناحر بسبب هذه الخصال، فيترتب على ذلك ضعف الاتحاد وتفرق الصفوف، ومن ثم كانت هذه الخصال من أسباب سخط الله تعالى على العبد.

الجماعة وعدم التناجي منها إلا بإذن

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ(ﷺ): «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، أَجْلَ أَنْ يُحْزِنَهُ»(٢).

---

(١) ينظر شرح الزرقاني على الموطأ : ٤/٦٥٣.

(٢) صحيح البخاري: ك/الاستئذان، بَابُ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثَةٍ فَلاَ بَأْسَ بِالْمُسَارَّةِ وَالمُنَاجَاةِ، حديث رقم: ٦٢٩٠، وصحيح مسلم: ك/ السلام، بَابُ تَحْرِيمِ مُنَاجَاةِ الِاثْنَيْنِ دُونَ الثَّالِثِ بِغَيْرِ رِضَاهُ، حديث رقم: ٣٧ (٢١٨٤)، واللفظ للبخاري.

التناجي من الأمور التي تؤدي إلى الفرقة والتقاطع بين الناس، ومن ثم فقد نهى النبي(ﷺ) عن أن يتناجى الرجلان دون الآخر؛ حفاظا على مشاعر الآخر من أن يحزنه.

في هذا الحديث الشريف نهي عن التناجي الذي يوقع في نفس الآخرين الوحشة والحقد والحزن، فيوقع الريبة في القلوب، ويزعزع الوحدة بين الجماعات، ويوقد الغل بين الأفراد، فجاء الحديث بلفظه الصريح الذي يقوم على الإيجاز والدقة والوضوح، وأول ما يشعرك بالتمسك النصي في البيان السابق الشرط؛ لأنه يلف الحديث من أوله إلى أخره، في نظم جمع معه من الأساليب البيانية التي توثق هذا التماسك، والوحدة بين أجزاء هذا النص منها: أسلوب الجمع في (كنتم) وهي الواصلة التي يتوصل منها إلى المعنى المراد، كذلك أسلوب النهي الذي كثيرا ما يحتاج إلى بيان علة له، فإذا جاءت ظهر النص ممسكا بعضه بحجز بعض، كذلك صورة الانتقال من الماضي إلى المضارع تلفت السامع إلى المراد من هذا البيان، وتجعله يقف على ألفاظه ومعانيه جملة.

ومن السمات البلاغية في هذا الحديث التي تؤكد على وحدة النص التي من خلالها يصل السامع منها إلى المقام المراد من حيث الحرص على الجماعة، وعدم التناجي منها إلا بإذن، لأن ذلك يؤدي إلى وحدة الأمة استهلاله بالجملة الشرطية (إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دُونَ الآخَرِ) وذلك يشعر السامع أن الكلام له أهميته وخطورته، وهذا من شأنه أن يجعل المتلقي أكثر إقبالا وتيقظا، حتى يقف على المعنى الذي قدم له، فيستفتح مداركه من أجله، وتستنفر حواسه لمعرفته، فيثبت في ذهنه ويرسخ في عقله.

وإيثار أداة الشرط (إذَا) دون (إن) لأن (إذا) تفيد تحقيق وقوع الفعل بخلاف (إن) لأن أصل (إذا) الجزم بوقوع الحكم والقطع به(١)، وبناء الحديث عليها يشير إلى أن مدخولها وهو الاجتماع والاختلاط أمر حادث وواقع في عالم الناس، وفي العدول عن مقتضى الظاهر وهو التعبير بالمستقبل في فعل الشرط إلى الماضي؛ ليفيد تحقيق وقوع الجواب المترتب على الشرط، لأن الماضي أقرب إلى القطع بالوقوع نظرا إلى لفظه الموضوع للدلالة على الوقوع، وإن كان بالنظر إلى المعنى على الاستقبال، ليصوره صورة الواقع لتجنبه(٢).

وفي التعبير بأسلوب الجمع (كنتم) ليفيد أن المعنى ليس قاصرا على العدد فقط، وإنما يمتد إلى كل من هم منه التناجي، فالشرط أفاد عموم الحكم وديمومته، وإنما خص الثلاثة بالذكر، لأنه أول عدد يتصور فيه معنى التناجي، فترك الجماعة للواحد كترك الاثنين للواحد، وهذا من حسن الأدب؛ لئلا يتباغضوا ويتقاطعوا(٣)، ومن ثم جاء النهي الذي يحافظ على وحدة المؤمنين وتماسكهم، ويحافظ لهم محبتهم ومودتهم، ويبعد عن نفوسهم الريب والشك، ويطرد عن قلوبهم الحسد، فسد به مسلك الفرقة والعداوة.

وعليه فإن التحريم واقع في تناجي الجمع للواحد فإذا تناجى جماعة دون أخرى فلا بأس شريطة عدم الفرقة والتخصيص لأفراد دون آخرين، فإن ذلك يؤدي إلى العلة الحاصلة من النهي في قوله (يُحْزِنَهُ) لأنه ربما يتوهم أن نجواهم فيها الإساءة إليهم والتقليل من شأنهم.

---

(١) ينظر: المطول ص٣١٨.

(٢) المصدر السابق: ص٣١٨.

(٣) فتح الباري لابن حجر: ٨٣/١١.

وقوله (فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دُونَ الآخَرِ) جواب الشرط وجاء مقترنا بالفاء؛ لتفيد الترتيب والتعقيب؛ بيانا للامتثال الحاصل في النهي، وسرعة للاستجابة له، وجاء فعل التناجي مضارعا منفيا بـ(لا) لاستحضار هذه الصورة منفية عبر الزمن، وفي التعبير به لمحة بلاغية حيث وقع الخبر موقع الإنشاء والغرض منه النهي _إخبار في معنى النهي- دلالة على سرعة الامتثال، وكأن المخاطب قد امتثل، فهو يخبر عنه موجودا للحفاظ على وحدتهم ومودتهم.

وظاهر الحديث على حرمة تناجي اثنين دون الآخر، وكذلك الثلاثة فما فوقهم، واختلف في السفر والحضر فأكثر العلماء على أن النهي عام في كل الأزمان، وفي الحضر والسفر، وقال البعض: إنما المنهي عنه في المناجاة السفر دون الحضر، لأن السفر مظنة الخوف([1]).

وعليه فالميل إلى أن جميع الأحوال والأزمان منهي عنها، سواء كان في الحضر أم في السفر، لأن علة النهي الحزن، والحزن يقع في السفر والحضر.

وفي التعبير بقوله (دُونَ صَاحِبِهِمَا) كما جاءت رواية مسلم ما يفيد حسن العشرة والألفة والصلة التي تجمع صفوفهم وتوحد شملهم.

وجاء قوله(ﷺ) (حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ) بمثابة جواز سفر ينجو به العبد من الوقوع في المحذور، فإنه إذا انتهى إلى هذه الغاية فلا إثم عليه ولا حزن على الآخر، فالتعبير بـ(حتى) تحديد لموضع التناجي المضبوط بالضوابط الشرعية، والتعبير بالاختلاط في صورة المضارع ما يفيد هذا الأمر واستمراره حتى لا يقع المسلم في أذية الآخرين وأحزانهم، والتعبير بالناس وإيثار الباء لشدة الملابسة بين أفراد المجتمع المسلم، والتعبير بعموم الناس يوحي بشدة الاختلاط والمراد بأل الجنس، لأن المراد اختلاط العدد الوارد في البيان بغيره.

---

(١) شرح النووي: ١٤/١٤٣.

كما أن إيثار لفظة اختلاط دون غيرها من الدلالات كاجتماع واشتراك، يوحي بأن هذه الألفاظ قد انصهرت في بوتقة واحدة لتصل إلى المقام المراد، فالاختلاط من شأنه امتزاج الشيء في الشيء، وانصهاره فيه حتى لم يعد فرقا بين الآخرين، وهذا هو المراد لا مجرد الاجتماع، وإنما تركه يكون إذا حدثت الألفة، وصار مع الإخوان، ألا ترى أن في هذه اللفظة ما تشعر السامع بتمسك النص، وارتباط أجزائه بنظم الكلام، وهذا بدوره يبين قدرة النبي(ﷺ) ومدى تمكنه من صوغ النص بأسلوب متماسك للوصول إلى المقام.

وجاءت علة عدم التناجي (أَجْلَ أَنْ يُحْزِنَهُ) لأنه ربما يتوهم أن نجواهما إنما هو لتبيين رأي فيه، أو دسيس غائلة له، أو أن ذلك من أجل الاختصاص بالكراهة وهو يحزن صاحبه([1])، وهم من مداخل الشيطان الذي يفرق بين الأخ وأخيه، ويوقع العداوة والبغضاء في نفوسهم ليفرقهم قال تعالى: (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا)([2]) فما كان من الحديث إلا أنه أغلق هذا الباب الذي يتسرب منه؛ ليحفظ للمجتمع وحدته وشمله، ويطرد عنه نزغات الشياطين.

---

(١) شرح المشكاة: ١٠/٣١٨٢.

(٢) المجادلة من الآية: ١٠.

المبحث الثاني:

محاربة أسباب الفرقة

إن محاربة أسباب الفرقة خطوة نحو توحيد الأمة وتماسكها، فكما أن الوحدة هي السبيل لارتقاء الأمة وتقدمها، فإن أسباب الفرقة هي السبيل لانحطاطها وتمزيق وحدتها، إذ لا بد من دراستها ومعرفتها حتى نقف من خلالها على أسباب تفريق الأمة وتفتت وحدتها، فلا شك أن أسباب الفرقة هي التي ساهمت في القضاء على وحدة الأمة وتقسيمها إلى فرق وأحزاب كل حزب بما لديهم فرحون، ومن ثم لابد من معرفة أسباب الفرقة التي تؤدي إلى الاختلاف والتفريق ومن ثم الابتعاد عنها ومعالجتها حتى تستقيم الأمة وتعود إلى مكانتها، وفيما يلي بعض الصور التي تبين كيف حارب الإسلام الفرقة وقلع جذورها وأسبابها من نفوس الأمة.

محاربة الرجوع إلى الجاهلية

عَنْ جَرِيرٍ(ﷺ)، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ(ﷺ) فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(١).

هذا الحديث الشريف يحذر النبي(ﷺ) فيه المؤمنين من الرجوع إلى الجاهلية، وما فيها من عادات تفضي إلى القتال والتنافر فيما بينهم، وتؤجج الفتن، وتذهب بالأمة إلى الهاوية، ويسري فيها سبل التفرق.

هذا الحديث من الأحاديث التي تبين المناسبة (حجة الوداع) فيوصف المقام الذي قيل فيه الكلام قبل أن يتحدث لأمر عظيم سيقع، فعظم المكان وشدة الموقف

---

(١) صحيح البخاري: ك/ الديات، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} [المائدة: ٣٢]، حديث رقم: ٦٨٦٩، وصحيح مسلم: ك/ الإيمان، باب بيان معنى قول النبي(ﷺ) لا ترجعوا بعد كفارا، حديث رقم: ١١٨ (٦٥). واللفظ للبخاري.

وجمع الناس وإنصاتهم، تجسيد للحدث، ومفاتيح نفسية للمعنى، ومزيد للعناية به، وقوله (اسْتَنْصِتِ النَّاسَ) السين والتاء للطلب، والمعنى السكوت والإنصات، وفرق بين قوله(ﷺ) (اسْتَنْصِتِ) وبين طلب الإسكات أو الإنصات أو غير ذلك من الدلالات اللغوية، فمناسبة المقام تقتضي الإنصات لأنه "السكون والاستماع للحديث"(١)، وهو المراد لأنه(ﷺ) لما أرسل جريرا(رضي الله عنه) أراد منهم أن يُنْصتهم للسمع، أما السكوت، والصمت فهو ترك الكلام، وحبسه(٢)، وفي لفظ الإنصات تأثر بالقرآن الكريم قال تعالى: (وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(٣) أي: استمعوا ولا تتكلموا، وتأتي المناسبة في أن الجمع غفير والناس يكبرون ويهللون ويحمدون ويسبحون ويطوفون، وهذا يحول بينهم وبينه(ﷺ)، فأراد النبي(ﷺ)، أن يسمعهم جميعا وأن يوصل كلامه إليهم، ولا أدل على ذلك من مجيء لفظ (الناس) فأل للعهد وهي كلمة تدل على العموم، والقصد المجاز المرسل لعلاقة العموم، فالخطاب لمن شهد الوداع، ولمن أتى من بعدهم ممن آمن به(ﷺ) فحمل اللفظ على المسلمين، وإيثاره في المقام للدلالة على أنهم الأولى بأن يسموا أناسا(٤)، وفي استعمال لفظ الناس دون غيره في المقام له بلاغة عليا لأنه(ﷺ) أراد أن يحفظ المجتمع من اضطرابه، وأن يزيل ما يفرق وحدته، وأن يحفظ للأمة استقرارها وأمنها، وفيه إيجاز بحذف أكثر من جملة وتقديره: فدعاهم فالتفوا حول النبي(ﷺ) فطلب منهم السكوت فسكتوا واستمعوا له، وبعد هذه المقدمة التي دعا النبي(ﷺ) الصحابة فيها إلى الإنصات والاستماع إليه والإقبال عليه قال (لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا) أي: لا تصيروا بعد

---

(١) لسان العرب: نصت.

(٢) المصدر السابق: سكت، ونصت.

(٣) الأعراف: ٢٠٤.

(٤) من أسرار البيان النبوي: د/ محمد أحمد علي ص٧٧، دار الصحوة ط/ الأولى ١٤٠٦هـ.

موقفي هذا، أو بعد موتي كفارا، فاستفتح النبي(ﷺ) حديثه بالنهي الذي يفيد النصح والإرشاد، فجاء النهي حماية ووقاية للأمة، وسد الطرق التي تؤدي إلى الفرقة، وإيثار النهي أقوى في المنع والتحريم، وأردع لكل من تسول له نفسه أن يؤذي المسلمين، أو يكون المعنى على تضمين ترجعوا بمعنى تصيروا، فيكون وجهه أن لا ناهية، والفعل ترجع بمعنى لا تصيروا، وواو الجماعة اسمها، وكفارا خبر منصوب وعلامة نصبه الفتحة.

وجاء في رواية أبي ذر (لا ترجعون) بصيغة الخبر(١)، وهذه الرواية تبين رغبة النبي(ﷺ) في تحقيق طلبه كأنه أمر ثابت ومطلوب.

وكلمة (كُفَّارًا) وما تحمله من زجر ووعيد وتهديد لمن وقع في جواب النهي (يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) وهو كناية عن القتال والحرب، واطلاقه (كفارا)على ضرب رقاب المسلمين مبالغة في التحذير من ذلك؛ ليردع من الإقدام عليه، وقد حمل صاحب المرقاة المعنى على قوله: إن ترجعوا يضرب بعضكم بعضا على تقدير الشرط(٢) فيكون الشرط من قبيل المجاز المرسل لعلاقة المسببية، حيث عبر بالمسبب وهو الكفر وأراد السبب وهو القتل، وإيثار المجاز يبين شدة حرص النبي(ﷺ) على الأمة وحفظها من التنافر والتقاتل، حتى إنه بمجرد الارادة والهم بهذا الأمر صار وكأنه أوقع نفسه فيه، حتى كأن الارادة وهي السبب أصبحت كالمسبب وهي الضرب، أو يكون الكلام من قبيل المجاز المرسل لعلاقة اعتبار ما سيكون لأن الضرب الذي يفضي إلى القتال يذهب بصاحبه إلى الكفر، وتبدو بلاغة هذا اللون في الزجر والوعيد لمن يقدم على هذا لأنه سيذهب بصاحبه إلى الكفر.

---

(١) عمدة القاري: ١٨٨/٢٤.

(٢) المرقاة: ٢٣١٢/٦

وقد يكون الكفر على معناه الأصلي من التغطية والستر(١) أي: أنه أي القتال يستر عن الإسلام ويلبسه ثوب الكفر أي: "لا ترجعوا بعدي ساترين الحق"(٢) أو يكون الكلام من قبيل التشبيه بحذف أداته(٣)، فيكون معناه لا ترجعوا بعدي كالكفار، فتشبهوا بهم في حالة قتل بعضهم بعضا قال القاضي: وهذا أوجه وهو أظهر الأقوال عند معظم شراح الحديث(٤).

وفي إيثار التشبيه وحذف أداته لطيفة بلاغية تدل على أن المشبه يتحد مع المشبه به في بنية النص، وهذا الحذف من أدوات التمسك النصي، وكأنه لا فرق بين الكفر وقتل النفس بغير حق، وإيثار كلمة (كفارا) وما تحمله من معنى هي قطب رحا الحديث لتوسطها بين الكلمين، وبناء الحديث عليها، فقد افتتح البيان بالنهي عنها وختم بتوضيحها والوقوف على معناها ومعرفة من وقع فيها، وهذا هو عين التمسك النصي في خطاب النبي(ﷺ) لأهل عرفة، وهذا التلاحم والتداخل بين الأساليب في هذا المقام مظهر من مظاهر الروعة، وفن من فنون الكلام، يزيد المقام رفعة وجمالا حتى يلقي على السامع الانتباه إلى ما يحمله السياق من إيحاءات ودلالات خاصه تتناسب مع أهل الموقف، وهذا من بديع الكلام وتمام حسنه، فهذه الخطاب وما أتى بعده (يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) قد حمل أوجه من الإعراب والبيان كل وجه له أثره في السياق فقوله (يَضْرِبُ) برفع الباء على الاستئناف بيانا لقوله (لاَ تَرْجِعُوا) كأنه قيل كيف يكون الرجوع كفارا؟ فقال: يضرب بعضكم رقاب بعض بغير حق(٥)،

(١) لسان العرب: كفر.

(٢) عمدة القاري: ٢٤/ ١٨٨.

(٣) ينظر: عمدة القاري:٢/١٨٧.

(٤) ينظر المصدر السابق: ٢/ ١٨٧، فتح الباري: ١٣/٤٠، وإكمال المعلم: ١/١٧٨.

(٥) ينظر عمدة القاري: ٢/١٨٧.

وعلى هذا يكون الفصل بين الجملتين لما بينهما من شبه كمال الاتصال وإيثاره يجعل السامع متشوقا للمعنى، فينتظر هذا الاستفسار التي أثارته الجملة الأولى، فإذا جاء المعنى صادف نفسا تهيأت لمجيئه واستعدت له.

أو تكون حالا من ضمير(لاَ تَرْجِعُوا) أي: لا ترجعوا بعدي كفارا حال ضرب رقاب بعض(١)، وجاءت هذه الجملة بدون الواو المثبتة في الجملة الحالية لإثبات أن ضرب رقاب المسلمين هو عين لفظ (كُفَّارًا) وكأن هذا الكلام خبر واحد" أنَّ كلَّ جملةٍ وقعَتْ حالاً ثم امتنعَتْ منَ "الواو"، فذاك لأَجْل أنَّك عمَدْتَ إلى الفعل الواقعِ في صدرِها فضَمَمْتَه إلى الفعلِ الأَول في إثباتٍ واحدٍ، وكلُّ جملةٍ جاءتْ حالاً، ثم اقتضتْ "الواو"، فذاكَ لأنكَ مستأنِفٌ بها خَبَراً، وغيرُ قاصدٍ إلى أنْ تَضُمَّها إلى الفعلِ الأولِ في الإثبات"(٢).

أو تكون الجملة صفة لكفار أي: لا ترجعوا بعدي كفارا متصفين بهذه الصفة القبيحة وهي ضرب بعضكم رقاب بعض(٣).

وبهذا الوصف تصبح هذه الجملة لها ارتباط وثيق بالتي قبلها فترك العطف بينهما لكمال الاتصال، ففي الجملة الأولى خفاء وإبهام، فجاءت الثانية بيانا وإيضاحا لها، فترك العطف لما بينهما من الارتباط وهذا له أثره في نفس المتلقي، لأنه جاء وقد تشوق إلى بيانه فتمكن في نفسه فضل تمكن.

وهذا التلاحم بين الجمل والارتباط من جوهر التمسك النصي، وركيزة أساسية من مرتكزاته في هذا البيان، ولون بلاغي أظهر معناه، وكون نسيجه حتى صار

---

(١) ينظر المصدر السابق: ٢/١٨٧.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢١٣.

(٣) عمدة القاري: ٢/١٨٧.

النص واحدا لا يتم معناه إلا بتمامه كله، وهذا يدل على جودة السبك، وقوة الحبك، ودقة النظم ومجيء الجمع في (بعضكم) يدل على التكاتف ضد إثارة الفتن، وتهييج الشر الذي يفضي إلى القتل الذي هو عين الكفر تبشيعا وتنفيرا للإقدام عليه، ومن ثم فقد نهى النبي(ﷺ) عن الأمر، لأن الأولى أن تكون وحدة الأمة في الخير، ونشره بين أفراد المسلمين، وإطلاق الرقبة على القتل من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، حيث أطلق الرقبة وأراد الكل، وإيثار ذلك المقام فيه بلاغة عليا لما فيه من تصوير القتل بأبشع صوره بإطارة العضو الذي هو رأس الأمر وقوامه ومجمع حواسه([1]).

وفي التعبير بالمضارع ما يصور صورة الضرب ويستحضرها ماثلة أمام الأعين، إذ المضارع قادر على أن يأتي بالشيء من زمن بعيد يحضره أمام السامع؛ تبشيعا للفعل وتحذيرا من الوقوع فيه، وفي هذا البيان تجد للقرآن أثرا واضحا بين قوله(ﷺ) (يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) وقوله تعالى: (فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ)([2])، فالحديث ينهي عن اقتتال المسلمين لأنه من أسباب الفرقة والتفرق والقطيعة التي تعود إلى صفات الجاهلية الأولى، وفي الآية حث على ضرب رقاب الكافرين المعتدين الباغين وهذا يعود بالأمة إلى قوتها ووحدتها.

وبعد... فقد نهى النبي(ﷺ) عن القتال لأنه من أسباب التفريق الذي ينشر العداوة والبغضاء بين أطياف المجتمع، فيتفرق شمله، وتضعف وحدته كما كان في الجاهلية، ولذلك نرى أن النبي(ﷺ) أخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المؤمنين وتوحيد صفهم من فتنة القتل لأنه أشد خطورة على المسلمين، فأراد أن يقطع دابر هذا الأمر حتى تتحقق وحدة الصف وقوة التلاحم، والتماسك بين أفراده لتتحقق وحدتهم، في

---

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي : ٣٩/٢٦، دار إحياء التراث بيروت.

(٢) سورة محمد من الآية: ٤.

جمع من الأساليب البلاغية التي تظهر شدة التماسك بين ألفاظه، فالمناسبة قائمة بين اللفظ وبين معناه.

النهي عن الاختلاف في أمور الدين

عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ(ﷺ)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَقُومُوا»(١).

القرآن الكريم هو الطريق لإقامة مجتمع مسلم مترابط متآلف، ولا سبيل لاجتماع الأمة ووحدتها إلا في فهم معانيه، وتدبر آياته وتحكيم شرعه على مستوى الأمم والأفراد، وائتلاف قلوبهم حوله، وهذا طريق جيد نحو وحدة الأمة وتماسك صفوفها.

هذا البيان السابق منهاج حياة للأمة الواحدة، لأن النبي(ﷺ) بين اجتماع المؤمنين حول القرآن الكريم، وقد تآلفت قلوبهم إلى فهم معانيه، وتدبر آياته، ولذلك أمر النبي(ﷺ) أتباعه بقراءة القرآن على هذه الهيئة، لأن ذلك يحفظ على المسلمين وحدتهم وألفتهم، ونهانا عن كل ما يعكر هذا الائتلاف بسبب عدم مراعاة هذا الأصل-ائتلاف القلوب على القرآن- لأنه يترتب عليه تفرق الصفوف وتشتت الجماعات، وتعدد الأحزاب واختلاف أقوالهم وآرائهم كل حزب بما لديهم فرحون، فنهاهم النبي(ﷺ) عن ذلك حتى ولو كان في مسائل العلم التي تبعث الخلاف فيؤدي ذلك إلى التشكيك في أمور العقيدة، فتضعف الأمة، ومن ثم نهاهم(ﷺ) عن الاختلاف، لأن طريق وحدة المؤمنين في ائتلاف قلوبهم، وهذا لا يقوم إلا على الفهم الصحيح للإسلام الذي مصدره القرآن والسنة النبوية.

---

(١) صحيح مسلم: ك/العلم: بَابُ النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُتَّبِعِيهِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الِاخْتِلَافِ فِي الْقُرْآنِ، حديث رقم: ٣ (٢٦٦٧).

تأمل كيف اتسم هذا البيان بالتناسب البارع والترتيب البديع، إذ يلزم بعضها بعضا من جهة اللفظ حتى يظهر على بنية النص مزية التماسك؛ ليدلي هذا النص بمراده والقصد منه، وتأمل ذلك من خلال هذا الرابط المعنوي وهو التطابق بين لبنات هذا النص، الذي يحدث التساوي بين الجمل، والتناسق الصوتي البديعي من خلال اتحاد الأقسام، وما فيها من تناسق بسبب هذا التقابل في الكلام، ومواجهة كل نقيض بنقيضه، فالأمر حاصل بقراءة القرآن، وتدبر آياته وفهم معانيه ما دامت الألفة والرحمة، والقيام عنه عند الاختلاف والتنازع.

كما أن مجيء النظم في ثوب الأمر في مفتتح البيان، ومجيء الشرط في ردفه، جعل النص كاللبنة الواحدة، لأنه لا تحقق لوقوع الشرط في البيان إلا إذا حدث من الأمر الماثل في القراءة شيء أدعى إلى وجود الشرط وتحققه، وفيما يأتي بعض الأساليب البلاغية التي اعتمد عليها البيان، والتي تآلفت وتوافقت؛ ليخرج من النظم ما يتناسب مع المقام.

وبدأ النبي(ﷺ) بأسلوب الأمر في قوله: (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ) "تطلعا للاستجابة مع السرعة، لأن من شأن الأمر الحقيقي أن يجاب على الفور"([1])، كما أفاد الأمر الدوام والاستمرار، والمعنى اغتنموا قراءته وداوموا على مدارسته ما دامت قلوبكم قد ائتلفت.

وقوله(اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ) القصد إلى مجالس ذكر القرآن، وتلاوته ومداسته وفهم معانيه وتدبر آياته وأخذ أحكامه وشريعته وبيان حلاله وحرامه والتزام أوامره، وتجنب نواهيه، وهذا طريق الاعتصام بحبل الله الذي يحفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، وهذا ما بينه النبي(ﷺ) في قوله (مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ)، لأن هذه المدارسة لا تخرج إلا من رجال ائتلفت قلوبهم واجتمعت خواطرهم على فهم القرآن الكريم، وإيثار صفة الائتلاف لأنها من أهم سمات العاملين بكتاب

---

(١) نظرات في أسلوب الإنشاء والقصر: أ. د/ محمد إبراهيم شادي، ص ٨٦.

الله-تعالى- الذين صفت نفوسهم، وتطهرت قلوبهم بكتاب الله فكانوا أحسن الناس قولا وعملا قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)(١) وتقديم الجار والمجرور في قوله (عَلَيْهِ) يبين شدة الائتلاف الذي اجتمع بينهم فهي مودة ورحمة خالصة بلغ في إخلاصها أعلى درجات الصفاء، كما أن هذا الإيثار يبين أن الائتلاف قد تخلص من نوازع الدنيا، ومفاتنها وتجرد من تحقيق المصالح، ومن ثم تألفت قلوبهم على طاعة الله، وإيثار مرضاته، وإيثار القلب لأن الأولى في قراءة القرآن أن يكون القلب حاضرا، فإذا غاب القلب غابت جميع جوارح الإنسان ولا تكون القراءة هكذا وإنما إذا قرئ القرآن فالواجب الاستماع والإنصات لا الاختلاف والتشاجر، وعد هذا من المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، وسر التعبير به لأن به يكون الانقياد لله والإيمان به، فهو المكان والجهة المعينة للائتلاف، واستنباط الأحكام من القرآن يقتضي إحضار القلوب وتألفها، ومن ثم كان هذا شرطا في المدارسة، وإلا فقد حذر النبي(ﷺ) من الفرقة والاختلاف فيما بين أهل العلم في ثوابته وأركانه، فإذا حدث واختلفت القلوب وتنازعت فالواجب الترك "لِئَلَّا يجْحَد أحدهم مَا يقرأه الآخر، فَيكون جاحدا لما أنزل الله عز وَجل"(٢)فكان الترك أولى، ومن ثم آثر البيان الشرط بـ(فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَقُومُوا) فليس القصد من ورائها تحقق الشرط فقط، وإنما الغرض القصد إلى تحقق القيام فيهم أولى وآكد إذا تحقق الشرط.

أو أن يكون المعنى على أنه(ﷺ) كان يطلع على الغيب فعلم أن من وراء زمانه يأتي آخرون تختلف قلوبهم، وتتنازع بسبب ثوابت الدين وجهلهم في استنباط أحكامه، فالواجب القيام عنهم حتى يعود إلى رشدهم، فالقيام هنا مرهون بالاختلاف، فإذا زال فالمدارسة والمتابعة.

---

(١) فصلت الآية: ٣٣.

(٢) عمدة القاري: ٢٠/٦٢.

فقوله (فَقُومُوا) مرهون بالشرط وتحققه؛ لذا آثر (إذا) دون (إن) لأنها تفيد تحقق القطع بوقوع الحدث، فهي لا تدخل إلا على المتيقن، أو ما في معناه(١)، والقيام عن آيات الله لا يكون إلا عند الاختلاف، ومن ثم اختلاف العلماء سببه فقيل: الاختلاف راجع منهم إلى حروفه أو العلة في التأويل والرأي والاجتهاد فيما لا يسوغ في الاجتهاد حتى يؤول ذلك بهم إلى الافتراق في العقائد، واختلاف المذاهب، وقيل ربما يكون الاختلاف راجع إلى زمانه(ﷺ) فنهاهم عن مدارسته وهم على هذا الاختلاف لأنه(ﷺ) بين أظهرهم، ويمكن الرجوع إليه فيما أشكل عليهم(٢)، حينئذ لا وجه للخلاف بينهم لا في حروفه ولا في معانيه وهو(ﷺ) حاضر معهم يرجعون إليه في مشكله، فينقطع تنازعهم في بيانه(٣)، وهذا الرأي عل حجته وبيانه إلا أن الخلاف واقع في زمنه وغير زمنه، فداعية الترك أولى عند وقوع الشرط، فالقراءة والمدارسة "ما دامت القلوبُ مؤتلفةً بَعْضُها ببعض، فإذا ظهر بين المجلس اختلافٌ وانشقاق"(٤)، فاتركوا القراءة وأعرضوا عن الأسباب المؤدية إلى الفرقة(٥)، فتقديم مصلحة الوحدة، والتمسك بالألفة على القراءة المجردة التي تسبب التناقض في فهم ثوابت الدين، والسبب في نهي النبي(ﷺ) الأمة عن القراءة والمدارسة في حالة اختلافهم، إنما راجع إلى اختلاف ما قبلهم من الأمم في كتابهم فقال(ﷺ): «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»(٦) فقد حذر من هذا الاختلاف الذي يذهب بالأمة إلى الهاوية ويكون سببا في ضياعها وهلاكها.

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٤/٢٠٠.
(٢) ينظر مطالع الأنوار على صحاح الآثار: ١/٢٥٩.
(٣) ينظر إكمال المعلم بفوائد مسلم : ٨/١٦١.
(٤) فيض الباري: ٥/٤٩٦.
(٥) ينظر فتح الباري:٩/١٠١.
(٦) صحيح مسلم: ك/العلم: بَابُ النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُتَّبِعِيهِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الِاخْتِلَافِ فِي الْقُرْآنِ، حديث رقم: ٢ (٢٦٦٦).

وقد بني هذا الحديث على محسن بديعي وهو المقابلة، وهي ركيزة من أدوات التمسك النصي في البيان، حيث طابق النبي(ﷺ) قوله: (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ) وجاء بما يقابله (فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَقُومُوا) حيث قوبل الائتلاف بالاختلاف وبين قوله (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، فَقُومُوا)لأنه لما كان القيام يقتضي عدم القراءة طوبق بينهما، فهذه مقابلة اثنين باثنين ليست على الترتيب، فلقد أضفت المقابلة على البيان توجيه الأمة نحو الصواب، ومعرفة ما لها وما عليها، وجاءت قاطعة ورادعة لكل من تسول له نفسه التفريق بين الأمة وضرب وحدتها، وهذا من سمات البلاغة الواضحة في هذا البيان الذي يصل إلى الغاية المرجوة من إقامة مجتمع متماسك تسود فيه الرحمة والألفة بين أفراده، وجاء ذلك في ثوب المقابلة، لأن من ميزتها أن تساعد على حسن الكلام وإيضاح معانيه([1])، وتضفي على النص مزية الترابط والتآلف والتماسك بين مفرداته، كما أنها أظهرت المعنى جليا، إذ أن مجيء الضد يجعل النفس أسرع انقيادا، وأكثر طلبا للضد الآخر، فإذا جاء استقر في الذهن، وهكذا أبان النبي(ﷺ) فضل القرآن على أهله الذين تمسكوا به فقادهم إلى الهداية والرشاد، وجمع بينهم في ألفة ورحمة ومودة.

التحذير من الوقوع في الفتن وتفريق الجماعة

عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ(ﷺ)، قَالَ: سَمِعْتُ عَرْفَجَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ(ﷺ)، يَقُولُ: «إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ»([2]).

---

(١) الصبغ البديعي: د/ أحمد موسى ص ٤٧.

(٢) صحيح مسلم : ك/ الإمارة، بَابُ حُكْمِ مَنْ فَرَّقَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مُجْتَمِعٌ، حديث رقم: ٥٩ (١٨٥٢).

*هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ: أَي شُرورٌ وفَسادٌ، وَوَاحِدَتُهَا هَنْتٌ، وَقَدْ تُجْمَعُ عَلَى هَنَواتٍ، وَقِيلَ: وَاحِدَتُهَا هَنَةٌ تأْنيث: لسان العرب: هنا.

في البيان السابق إخبار من النبي(ﷺ) لأمته بأنه سيأتي على الناس زمان تنتشر فيه الفتن التي تفريق الوحدة، وتشق الصف؛ لذا حذر النبي(ﷺ) الأمة منها، ومن الطوائف المنحرفة حولها، لأنهم أشد حرصا على تفريق وحدة المسلمين، ومن ثم جاء البيان قاطعا لكل من تسول نفسه تفريق جماعة المسلمين، ونشر الفتن بينهم بالقتل إن لم يرجع وينتهي عن طريقه، وهذا طريق جيد نحو الاجتماع والائتلاف والوحدة.

جمع هذا الحديث النبوي الشريف العديد من الأساليب البلاغية التي شكلت المراد، وفق نظم مترابط ومعنى بينهم قائم، من ذلك الاستفتاح بضمير الشأن، والذي يفيد ربط أجزاء الكلام بعضه ببعض، فأنت لا ترى به النص مبتورا عن أجزائه، وترى البيان إذ هو دخل أشد تمسكا وتلاحما حتى كأن النظم أفرغ إفراغا واحدا، وسبكت مفرداته، كما أن مجيء الشرط بـ(من) بعد النظم السابق له القدرة على تصوير هذا الترابط والتلاحم، إذ يترتب على تحقيق الشرط واستكمال نظمه في البيان المعنى الأصلي المراد، وإلا سقط الجزاء والحكم بسقوط أجزاء الكلام، وفيما يأتي بعض الأساليب البلاغية التي شكلت وحدة النظم، وتماسك ألفاظه؛ لتتناسب مع المقام.

هذا الحديث من الأحاديث التي تحث المسلمين على لزوم الجماعة، والتحذير من الفرقة، وهذا من الأحاديث التي تصف واقعا غيبيا سيحدث، ونظرا لهذا الواقع الذي يدور عليه الأحداث اعتمد النبي(ﷺ) على التوكيد الأسلوب العمدة في حديثه، وبدأ به فقال(إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ) لأنه من شأنه أن يقرر المعنى ويؤكده بما لا يدع مجالا للشك والريب، فضلا عن أن (إنَّ) تلفت انتباه المخاطب وتستدعي عقله إلى شهود المخبر عنه وأهميته وهو التحذير من الفتن والأمور العظام التي تقع عبر الزمان، وهذا أمر غيبي؛ لذا كانت داعية التوكيد آكد؛ نظرا لكون الحاجة إليه أمس إذ المخاطب يعيش في عهده(ﷺ)، وتحت حكمه واستقرارهم والتفافهم حوله وهو(ﷺ) يخبرهم أن الفتن ستكون هنات وهنات، فقد يظن الظان أن أمر الفتن مستبعد الوقوع

بعد اكتمال الدين فاستدعى النظم (إنَّ) لزوال الظن وتحقيق المعنى المخبر عنه يقول الإمام عبد القاهر:" إنما تحتاجُ إليها إذا كاَن له ظَنٌّ في الخلاف، وعقد قلب على نفي ما ثبت أو إثبات ما ننفي. ولذلك تَراها تزدادُ حُسْناً إذا كان الخبرُ بأمرٍ يَبْعُدُ مثْلُه في الظنِّ"([١]).

وإيثار البيان دخول ضمير الشأن على (إنَّ) فيه بلاغة عالية، لأنه(ﷺ) لم يرد أن يخبرهم فحسب عن الفتن، وإنما أراد أن يعظم الجماعة والوحدة والتألف إذا وقعت الفتن، وأن يذم التفرق والتشرذم وأهله وكل من دعا إليه، ومن ثم حسن استعمال (إنَّ)وضميرها في المعنى لأنها تحققه بإيجاز وتقرره بما لا تراه إذ لم توجد، فكأنك لا تبتغي بها بدلا ولا تجد عنها حولا، وهذا هو عين التمسك النصي وأداة من أدواته، وشيء آخر يؤكد حتمية حصول المعنى وهو إدخال السين على المضارع؛ نظرا لاقتضائها توكيد موعودها، وتقرير معناه مع تخليصها إياه للمستقبل([٢]).

والإتيان بالمضارع يدل على استحضار صورة المستقبل حاضرة في الحال، وكأنها مشاهدة أمام السامع، وهذا يجعل السامع أشد رغبة وحرصا إلى تقرير الخبر.

وثمة واقع أليم سيحدث عند وقوع الهنات، فاستعمل من الألفاظ ما يدل على إصابتها لتلك الواقع الأليم فقال (هَنَاتٌ) فدلالة الجمع تبين كثرتها وعظمها عند وقوعها وتنوعها؛ لتذهب نفس السامع كل مذهب في تصورها ومصيرها، وما يبرهن على ذلك طوي الحديث عن إثبات وتحديد هذه الفتن، وطوي الزمان يدل على أن الفتن لشدتها وهولها قد استحوذت عليه، وهذا من كنوز المعنى، ومن بلاغته العالية اختيار اللفظ المعبر عن أداء هذا المعنى كقوله(هَنَاتٌ) وما يناسبها من سياق النظم يدل على تمسك النص بها، فلا يصح أن تستبدل بأخرى، لأنك لا تجد المعنى نفسه

---

(١) دلائل الإعجاز: ص٣٢٥.

(٢) ينظر الكشاف:٢/ ١٦٢، معاني القرآن للرماني: ص ٤٣٠، والبرهان ٤/ ٢٨١.

إذا لم توجد، فهي وإن دلت على الفتن وشرورها وفسادها، إلا أنك تجد فيها معنى خفي يتدبب إلى الإنسان في الخفاء حتى يوقعه فيها، وتكرار اللفظ بعينه لحكمة مزيد تقرير المعنى المرة بعد المرة.

وفي إيثاره قوله (هنات) الممثلة في الكناية ما يدعم المعنى ويؤكده، حيث كنى عن توصيف الفتن وبيان أنواعها وأحوالها يوم تكون بالهنات، وإيثار المعنى المكني دون الصريح لأن للإثبات بها مزية لا تجدها في التصريح، هي أن ينبه المخاطب إلى قبح هذه الفتن وفحشها مما عف اللسان عن ذكرها فأراد أن يجمعها وهي متتابعة الواحدة وهي ممسكة بعضد أختها الأخرى، فاللفظ "يكنى به عن كل شيء يستقبح التصريح به لشناعته"(١)، ومن ثم فلا تجد المعنى نفسه إلا وهذه الكناية ممسكة بأختها، ومقرونة بها في النص، إذ المعنى المكني فيه المبالغة الحقيقة التي تكون مع وصف هذه الأحداث والأهوال التي لا ينبغي الوقوف فقط على معناها، وإنما أراد أن ينبه العقول، وأن يوقظ النفوس إلى هذا الخطر الداهم المظلم، والأحداث والأهوال؛ تنبيها للمؤمن من الوقوع فيها، وزجرا لمن تسول له نفسه الاقتراب منها.

وأرى أن التعتيم والخفاء عن هذه الأمور المستحدثة القبيحة العرضة على الأمة وما فيها من شناعة وقبح يهدد وحدة الأمة، وتجمع كلمتها وتوحيد صفها؛ لذا نرى أن النبي(ﷺ) أخذ بأسباب نجاتها نحو طريق الاجتماع والائتلاف فقال(ﷺ) في بيانه (فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ) وهذا البيان هو قطب رحا الحديث وعليه دار الكلام، لأن ظهور الفتن من الأسباب المؤدية إلى التفرق الاختلاف، ويترتب على ذلك ظهور الفرق الضالة والطوائف المنحرفة التي تدعو إلى تفريق الأمة وضعفها، ومن ثم كانت داعية الشرط من المرتكزات البلاغية التي أوضحت فكرة محاربة هذه الفرق لتوحيد صف الأمة، ومن ثم فقد جاء البيان في أسلوب شرطي أداته (مَنْ)

---

(١) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم: ٢٠/١٠٤.

والتي أضفت على النظم مزية الترابط، فجاء النص متماسكا كل جملة فيه آخذة بحجز أختها، فظهور الفتن يأخذك إلى ظهور طوائف تشق الصف وتهدم جسد الأمة، وظهورهم يأخذك إلى وجوب معنى الشرط فيهم، وهذا الكلام من النمط العالي، وجاء فعل الشرط ماضيا (أَرَادَ)لإرادة تصوير أمر التفريق واقع ومحقق إذ وقعت الفتن، إذ أن مجرد الإرادة للإقبال على الفتن، وتفريق وحدة الأمة أمر جد خطير يترتب عليه ضعف الأمة ووهنها، وشيء آخر وراء الماضي في (أَرَادَ) ومجيء المضارع (يُفَرِّقَ) عقبه هو أنه بمجرد همه وإرادته قد أوقع نفسه فيها وانغمس فأصبح يفرق في صورة المضارع الذي يصور تشبثه وتلهفه في استمرار تفريق هذه الأمة، وسعيه الحين بعد الحين في هدم استقرارها دون توقف منه، وأنه لا ييأس من محاولة، ومن ثم تحققت حتمية الشرط فيه، لذا كان البيان معني بكل لفظة، وثمة فرق بين (يريد، وأراد) لأن الماضي يوحي بتحقق هذه الجريمة وثباتها ومن ثم كانت حتمية الشرط واجبة فيه إن لم يرجع عن طريقه، لأن الإرادة هنا ارتقت لتناسب معنى الحرص لأنها جاءت بعد الخوض في الفتن، والتلبس بها، إذ الأصل في استعمالها القوة المركبة من شهوة وحاجة وأمل(١)، وهذا لا يفيده المضارع (يريد)، ومن ثم فحاجة النص إلى التمس آكد، لأنه يجب ردعه وتنبهه إلى خطئه، فإن ظهر وثبت تفريقه للأمة بالأدلة القاطعة التي تبرهن على تحقق الأمر فيه وجبت حتمية الشرط.

والتعبير بقوله(أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ) هنا في غاية البلاغة لأنه يبين وحدة الأمة واجتماع أمرها وتوحيد كلمتها، فالتعبير بالأمر للإيذان بأن أمر الأمة واحد وطريقه الاجتماع والائتلاف، وفيه إشارة إلى أن هذا هو الأصل الثابت فيها، وما حل عليها من فرقة عارض وزائل، ومجيء اسم الإشارة (هذه) للدلالة على عظم شأن هذه الأمة والإتيان به هنا فيه بلاغة عليا، لأن من بلغ وصفها هذا المبلغ صار

---

(١) ينظر غريب القرآن: ٢١٢.

جديرا بأن يشار إليه، والتعبير بالأمة يقصد به جماعة الأمة والإتيان بقوله (وَهِيَ جَمِيعٌ) زيادة في التأكيد، حيث أفاد ضمير الغائب (وهي) إبراز مكانة الأمة ومنزلتها، فالجملة توكيد لما تقدم ذكره تفخيما وتعظيما لشأن الأمة.

وقيل (وَهِيَ جَمِيعٌ) "أي مجتمعة على إمام واحد متفقة عليه"(١)، فالبيان كناية عن كون الأمة مجتمعة الكلمة على رجل واحد، فمن خرج حال فيه معنى الشرط (فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ) وفيه أمران الأول: أن اللفظ بالسيف كناية عن دفعه ومحاربته، ورده عن الأمر يقول الطيبي" ادفعوا من خرج علي الإمام بالسيف، وإن كان أشرف وأعلم، وترون أنه أحق وأولي"(٢).

وقد اختار النووي قوله: "من أراد أن يفرق كلمة هذه الأمة ونحو ذلك ينهى عن ذلك، وإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بالقتل قتل"(٣).

والثاني: أن البيان كناية عن القتل يؤيد ذلك إيثار السيف لأنه "أعظم آلات القتل وأكثرها استعمالا"(٤)، وإن كان القصد الضرب والتخويف والردع دون القتل لما أتى بالسيف الذي كان عادة العرب في القتال وأكثره شيوعا، وما يؤكد هذا رواية أخرى لمسلم (فَاقْتُلُوهُ) جوابا عن الشرط، وجاء مقترنا بالفاء لأنها تفيد الترتيب والتعقيب والتسبب(٥)، فتمسك النص بالفاء أمر آكد، إذ هي تسعف السامع بالجواب، لأنها تزيد من سرعة إيقاع الكلام، وربطه فناسب ذلك المقام، فحصول القتل مسبب عن تفريق الأمة، كما أن الفاء أداة من أدوات التمسك النصي، والتي توحي بسرعة

(١) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم: ١٠٤/٢٠.

(٢) شرح المشكاة :٢٥٦٦/٨.

(٣) شرح النووي: ١٢/ ٢٥٦٦.

(٤) فيض القدير: ٣٠٠/١.

(٥) ينظر أساليب القصر في القرآن الكريم: د/ مصطفى حميدة ص ١٢٢.

الوصل بين المعطوفين(١)، فإذا كان فعل الشرط محقق الوقوع فإن حتمية الجواب واقعة عليه، ومن ثم أتى بالفاء للإيذان بتعانق القتل لكل من يفرق الأمة، وهذا تنبيه إلى كل من تسول له نفسه تفريق الأمة إن لم يرتدع وينتهى عن ذلك قتل(كَائِنًا مَنْ كَانَ) واللفظ كناية عن عدم تركه ودفعه ومحاربته وقتاله حتى وإن ذاع صيته أو غير ذلك إن خرج عن الائتلاف والجماعة وأراد شق وحدتها، وتحقق منه الخروج على الإمام الشرعي الذي يراعي أحوال المسلمين، فخرج دون مرخص شرعي يجب قتله وإن كان ذا جاه أو منصب أو صيت حسن(٢).

وثمة معنى بلاغي جميل يشير إلى حال الأمة في توحيد الصف هو الجمع في جملة الجواب (فَاضْرِبُوهُ) والإفراد في آلة الضرب (السيف) للإيذان بأن الأصل الذي يجب أن تكون عليه الأمة هو التقارب والترابط والاتحاد على سيف واحد لضرب رجل يريد أن يفرق شملها، كأن كل واحد من الأمة يشغله ذلك، فأرادوا جميعا بآلة واحدة ردعَه ومحابته وقتاله، وهذا طريق جيد نحو الوحدة.

وعليه فإن التمسك النصي بين مفردات هذا البيان أمر آكد يترتب عليه حكم من أحكام المسلمين، لذا لا يصح أن تسقط جزاء من البيان، وأن تغفل عن آخر، لأن هذا يكون معه الجور في الحكم، ويترتب عليه تفريق المسلمين.

التحذير من الخروج على الإمام وتفريق الجماعة

عَنْ عَرْفَجَةَ(ﷺ)، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ(ﷺ)، يَقُولُ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ»(٣).

---

(١) ينظر شرح ابن عقيل: ٢/ ٢٢٧

(٢) ينظر الكوكب الوهاب ٢٠/١٠٥.

(٣) صحيح مسلم: ك/ الإمارة، بَابُ حُكْمِ مَنْ فَرَّقَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ مُجْتَمِعٌ حديث رقم: ٦٠ (١٨٥٢).

هذا الحديث يشترك مع السابق في كثير من الأساليب التي شكلت الفكرة التي يدور حولها النظم وهي (أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ) وما قبل ذلك هو طريق له، وما بعده جزاء ترتب عليه، وهذا الكلام من النمط العالي، وإنما كان ما تراه من الحسن، وجودة السبك بالمسلك الذي سلك في النظم، والتأليف الذي عليه النص من أنه أتى بالقطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به المراد (يَشُقَّ عَصَاكُمْ) وما كان بهذه المنزلة من الفضل والمزية كان حريا بأن يوقظ الهمم نحو المراد، وبالنظر في البيان نجد أن النبي(ﷺ) بناه على أسلوب الشرط بـ(مَنْ) الذي يلفه من أوله إلى آخره، وذلك جريا على عادته في إرساء الاحكام التي تقرر حكما على العموم، كما أن هذه الأداة تفضي على الحكم ديمومته، وهذا الحكم جد خطير، إذ يترتب عليه محاربة المعتدي المتربص بشأن وحدة الأمة وردعه، فإن لم ينته وزاد جرمه قتل دفعا لشره، وإلا تترك الأمة للفتن والتفرق فتضعف ويكثر فسادها، ومن ثم كان البيان واضحا أتم الوضوح في دلالته، فآثر فعل الشرط في صياغة الماضي؛ ليفيد تحقق الوقوع في هذه الجريمة وثبوتها، لأن هذا شرط في الجزاء، وإلا لم يقع لشك أو غير ذلك، كما أن الإتيان بدلالة (أَتَاكُمْ) يناسب النظم فلا تكاد تجد هذه اللفظة في البيان إلا وهي ممسكة بالنص متلاحمة معه في المراد، لأنك لو نظرت في معناها مفردة غير مقرونة مع نظمها لم تجد الفصاحة إلا وهي داخلة في النظم؛ للإيذان بأنه لا يكفي في وقوع الجزاء إلا الإتيان الواضح المحقق الظاهر الوقوع لا التوهم، ومن ثم يلمح فيها ملمح بلاغي خفي قائم على الاستعارة التصريحية، حيث استعار الإتيان لمعنى الظهور والوضوح في معنى جامع بينهما وهو حصول الأمر في كل مع تحققه، كما أن اختيار الإتيان دون المجيء يناسب النظم، لأن الإتيان يتناسب مع الشيء الخفي الذي لا يحتسب أن يؤتى منه، فبعد التفاف المسلمين نحو وحدتهم وتحصن كلمتهم دب هذا الماكر بينهم بالفرقة حتى ظهرت عداوته وتبين جرمه.

والجمع في قوله: (أَتَاكُمْ) ما يبين تمسك الأمة بالوحدة، وما يثبت نشوزه وشقه وانسلاخه من هذه الوحدة إلى طريق آخر، ومن ثم آثر البيان (أَتَاكُمْ) دون جاءكم، لأن الإتيان يتناسب مع حضور الذات في موضع من موضع آخر سبق حصولها فيه، ولما كان الإتيان يستلزم التنقل ليكون حالا في مكان بعد أن لم يكن به(١)، ومن ثم تحقق وثبت جرمه من انتقاله من الجماعة إلى الفرقة في حالة كون الأمة مجتمعة على رجل واحد له إمامته وشرعيته من جميعهم، ومن ثم أتى بقوله (جميع) لتأكيد التفافهم حوله وتحصنهم به وهم سواء دون تفريق بين إمام ومأموم.

والإتيان بحرف الجر يدل على أنه الرجل الواحد-الإمام- هم مستعلون به؛ للإيذان بشدة الائتلاف بين الأمة فهم جسد واحد، وفيه معنى يؤكد حق هذا الرجل في إمامته المستمدة من شرعية قومه، وحق رعايته والاجتهاد لهم والنصح بما يحقق لهم حياة آمنة مطمئنة، والتعبير بالرجل الواحد يحقق إمامة من اجتمع حوله القوم دون غيره، فلا تتعدى الإمامة الرجل الواحد، ومن ثم كان إثبات الرجل الواحد آكد لهذا المعنى، وكذلك لا تتحقق إمامة المرأة، وفي جعل أمرهم جميعا إلى رجل واحد من قبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية، لأن هذا الإمام هو سبب جمعهم وتوحيد صفهم.

ومن شدة التمسك بالنص قوله (يَشُقَّ عَصَاكُمْ) لأنك لا تجد هذه اللفظة دالة على المقصود إلا وهي متداخلة في النظم، ولا تجد الملائمة في معناها إلا مع مجاورتها، ومن ثم يرجع فضل هذا النص إلى حسن أخواته في البيان، وحسن أخواته يرجع إلى حسن النظم، وتأمل لو أخذت هذه الكلمة (يَشُقَّ عَصَاكُمْ) من بين أخواتها وأفردتها لا تؤدي من الفصاحة والبيان ما تؤديه مع سياقها في النظم، فلو قلت: (يشق عصاكم) من غير هذا النص لم تصل إلى حسن المراد كما لو كانت مع أخواتها في النظم، وقد انتقل من صورة الماضي إلى المضارع في قوله (يُرِيدُ أَنْ

(١) التحرير والتنوير:٢/٢٨٥.

يَشُقَّ عَصَاكُمْ)؛ ليصور الحدث من زمن بعيد ماثلا أمام الأعين، كما أن المضارع يصور صورة هذا الماكر بين الحين والآخر؛ ليضعف صف الأمة فهو يجدد حدوثه متى يشاء في زمن يناسبه، والتعبير بـ(يشق عصاكم) فيه صورة بيانية تتمثل في الاستعارة التمثيلية، حيث صور هيئة من يشق صف الأمة، ويضعف وحدتها ويفرق جماعتها، بهيئة من يشق العصى، بجامع الافتراق في كل، وجمال التعبير أنها جاءت بالمعنى مصورا ليوضحه وينبه الأمة إلى خطره، مع المبالغة والقوة المصاحبة للإيجاز في اللفظ ليتناسب مع المقام، لأن من مناقبها أن تفصح عن الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، كما أن الصورة أخرجت الشيء المعقول إلى صورة محسوسة تدرك بالعيون، والتعبير بالعصا في البيان فيه بلاغة قيمة لأن العصا إذ لم تشق تشير في صلابتها وقوتها ووحدتها إلى وحدة الأمة وتماسكها، وإذا افترقت وكسرت لا فائدة منها كذلك الأمة إذا ضعفت وتفرقت.

وشق العصا كناية عن إثارة الفتن وافتراق الأمة، وثمة معنى جامع بينهما هو أن العصا في جملتها متماسكة لا تشق إلا بشيء دخيل عليها، كذلك الأمة متماسكة لا تضعف ولا تنكسر وحدتها إلا بشيء عارض إن هم تماسكوا واصطفوا قويت شوكتهم فلا يعتريهم شيء، كذا العصا حتى صارت يضرب بها المثل في القوة الائتلاف والاجتماع إذا كانت مجموعة، وفي الضعف والهون والاختلاف إذا كانت مشقوقة منكسرة كقول الملهب بن أبي صفرة:

كونُوا جميعا يا بنيَّ إذا اعتَرى   خَطْبٌ ولا تتفرقُوا آحادا

تأبَى الرماحُ إذا اجتمعْنَ تكسُّرا   وإذا افترقْنَ تكسَّرت أفرادا(١)

---

(١) لم يعثر عليهما في الدواوين الأدبية الأصلية المتخصصة، وقيل إنهما لأكثم ابن صيفي، وقد يُنسب البيتان إلى معن بن زائدة الوائلي، راجع مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي: ١١/ ←←←

فقد شبه البيان النبوي حال اجتماع الناس والتفافهم نحو إمام بهيئة العصا السليمة، وافتراقهم وخروج أحدهم منهم بالعصى وهي مشقوقة لا أمل فيها ولا رجاء.

ومجيء (أو) في قوله (أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ) تظهر التمسك النصي، وهي أداة ربط بين البيان، وما يبرهن على ذلك عدة معان منها أنها تحمل على الشك من الراوي في ذكر إحدى الجملتين وهو يريد إحداهما غير متعينة، أو للتنويع وعليه فإن شق العصى غير تفريق الجماعة فالأول هو التفريق، والثاني أريد به المفارقة، وإن كان بينهما ملازمة في المعنى، أو تكون (أو) تفسيرية من عطف المرادف تفسيرا لما قبله(١)، وأرى أن (أو) في البيان للتنويع، فشق العصى غير تفريق الجماعة، لأن الأول فاق جرمه، وظهر مكره وذاع صيته، وفارق الجماعة، والثاني: دب وخفي وسعى في تفريق الجماعة حتى ظهرت عليه علامة التفريق بين الأمة، فالأول خرج من الجماعة وانشق عنها، والثاني سعى في تفريقها، وقد يراد منها التسوية بين المعنيين وإنما ساوى بينهما؛ ليبين تلاحم الأمة وتماسكها في وجه هذا الظالم المعتدي المرة بعد المرة، وعدم يأسه في تفريق الجماعة، فساوى بين خروجه من الأمة، وسعيه في تفريقها كلاهما سواء في الجرم، ألا ترى شدة تماسك النص بها آكد، وحاجته إليه أشد في الذكر من أن لا تذكر في البيان.

وجاء الجواب في قوله (فَاقْتُلُوهُ) بالفاء التي تفيد الترتيب والتسبب، وجاء الأمر مسندا للجمع لبيان الصف والاتحاد في وجه هذا الظالم، وفيه مجاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الكل وأراد الجزء وهم أهل القصاص والعقوبة، وهذا البيان وإن اتفق مع سابقه في بيان معناه والأساس الذي وضع من أجله إلا أن ثمة أمر بينهما في

←←←

٦٦، وقد ينسب للطغرائي الحسين بن علي الأصبهاني ينظر: صيد الأفكار في الأدب والحكم والأمثال: ١/٨٦.

(١) ينظر مرقاة المفاتيح: ٦/٢٤٠٠، والكوكب الوهاج: ٢٠/١٧٠.

الجواب، فالأول الضرب بالسيف، والثاني التعبير بالقتل لأن الأول لما ظهرت الفتن وخرجت من جحرها علت السيوف وخرجت من غمدها وهذا له أثره في الردع، والثاني لما كان هو المبتدع والمفارق لأمر الجماعة والساعي في تفريق الأمة قوبل بالقتل إلا لم ينته دفعا لشروره وفساده.

وأرى أن كلمة (وَهِيَ جَمِيعٌ) في البيان (سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ) وكلمة (جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ) في هذا البيان القول الفصل في وقوع الشرط، وشاهد وأصل ثابت وحجة، وبرهان قاطع، وضابط مهم يستند إليه عند وقوع الفتن والشرور، واختلاف الكلمة والنفوس، ومن ثم فحاجت النص إليها أشد لتوقف الحكم عليها.

مفارقة جماعة المسلمين كموت الجاهلية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَمَاتَ، فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»(١).

جاء هذا الحديث على حذو الحديث الذي قبله من حيث إنه جاء في ثوب الشرط، حيث أفرغ النبي(ﷺ) بيانه في أسلوب شرطي أداته (من) والتي أضفت على النظم مزية الترابط، لأن إفراغ البيان في فعل الشرط (مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ) يجعل المخاطب في شوق واستعداد إلى معرفة جوابه وما يؤول إليه فإذا جاء وقع في النفس وثبت، وهذا التلاحم بين الشرط وجوابه يجعل النص ممسكا بعضه بزمام بعض حتى ينتج هذا الخطاب النبوي الذي يدعو فيه إلى الوحدة، وعدم مفارقة الجماعة، والملاحظ في هذه الأحكام الواردة عن توحيد صف الأمة حول أميرها أنها جاءت

---

(١) صحيح البخاري: ك/الفتن، باب قَوْلِ النَّبِيِّ(ﷺ): «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا»، حديث رقم: ٧٠٥٤، وصحيح مسلم: ك/ الإمارة، بَابُ الْأَمْرِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم: ٥٥ (١٨٤٩)، واللفظ لمسلم.

بالشرط بـ(من) إذ أن الشرط بها قادر على توجيه الحكم للعموم مع ديمومته، وهذا الافتتاح فيه براعة استهلال تجاوز النبي(ﷺ) فيه مخاطبة الأسماع إلى مخاطبة الاحساس والوجدان بكل ما تملكه النفوس من ملكات الوعي والإدراك([1])، مما أعانه على انتباه المخاطب، لأن الأمر جد خطير يتعلق بائتلاف الأمة والتفافها حول أميرها حتى لا تتفرق، وتنقسم إلى أحزاب كل حزب بما لديهم فرحون.

وجاء فعل الشرط ماضيا لإرادة تصوير الرؤية واقعة محققة، لأنه من الأمور التي تقع ويجزم بوقوعها، فلا يوجد أمير اتفق عليه القوم، ولكن إذا جاء بأمرهم وشرعيتهم التف الناس حوله، وما يبرهن على ذلك إضافة الأمير إلى من وجد فيه شيئا يكرهه، وهذه الإضافة تدل على قوة السبك، وجودة الحبك، ودقة النظم في البيان؛ لما فيه من ربط متين بين أجزاء الكلام، فحاجة النص إليها أشد وآكد وتمسكه بها؛ لما فيها من دور لا تجده بدونها، وتمسك النص بها يدل على، أنه جاء بإرادتهم وشرعيتهم وله حقه في الإمامة، وعبر بفعل الشرط بالرؤية دون السماع لأنها أعظم في إثبات الشيء وألزم بوقوع الحجة، فهي رؤية بالعين، وواقع محقق وثابت، وإذا كان الأمر جاء بالصبر مع هذا فمن باب أولى الصبر والتثبت عند السماع والإخبار لتجنب الوقوع في الفتن وشرورها.

وقوله (أَمِيرِهِ) من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية لأنه أمير الأمة، وبلاغة المجاز تكمن في تذكره بحق إمامته عليه، وأنه جاء عن طريق شرعيته، وهذا ما يدعوه إلى الصبر، وقوله(شَيْئًا) فيه إشارة إلى الثبات التي تحققته هذه الجملة، وهذا ما أفصحت به النكرة في قوله (شَيْئًا) والتي أضفت عليها صفة العموم والشمول؛

---

(١) البديع من المعاني والألفاظ : أ. د/ عبد العظيم المطعني، ص٨٥٠، دار وهدان للطباعة والنشر، ط/ الأولى ١٩٧٦م.

لتجعل دلالة النظم واسعة فتشمل جل الأشياء التي تتسرب منها الفرقة والتفريق بين الجماعة.

وبعد هذا النظم الذي جعل النفس في حالة الترقب والاستعداد، وبعد بيان رؤية لمأموم تجاه أميره أدت إلى كره، يترقب السامع الموقف وما سيكون، ومن ثم جاء الجواب في صورة أسلوب الأمر المقترن باللام الطلبية والفعل المضارع (فَلْيَصْبِرْ) وكأن النفس لما رأت المكروه أصبحت مأمورة بالصبر تجاه الحاكم وقد عضد من شأن ما سبق مجيء الفاء مع الصبر للتسبب والترتيب، وهذا أدعى للجماعة وأردع للفتن والتفرق، وذلك لأن الاختلاف يفضي إلى النزاع والفرقة لاسيما على الحاكم، لذا أمر بالصبر على ذلك المكروه حتى "لَا يخرج عَن طَاعَته لِأَن فِي ذَلِك حقن الدِّمَاء وتسكين الْفِتْنَة إلاّ أَن يكفر الإِمَام وَيظْهر خلاف دَعْوَة الْإِسْلَام فَلَا طَاعَة لمخلوق عَلَيْهِ"(١).

وهذه الجملة التي تحض النفس على الصبر تجاه أمير رأت منه مكروها تحتاج إلى علة مؤكدة حتى تستقر في النفس، ومن ثم كانت حاجة النص وتمسكه بالتعليل آكد؛ لذا جاء التعليل النبوي للأمر بالصبر وجاء مقترنا بإن فقال: (فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا...) فقد أضفى على النظم القوة والتأكيد والتقارب والتفاعل بين أجزاء الكلام ، وذلك لما في إن من التأكيد والفاء من معنى التعقيب والتسبب والربط بين أجزاء الكلام، وهذا ألزم لإقناع المخاطب للامتثال، كما أن ذكر الشيء بسببه آكد من ذكره معرى عن السبب يحتاج العقل في الكشف عنه والوصول إليه(٢)، وهذا البيان استدعى الفاء المصاحبة للتوكيد حتى لا يترك مجالا للتفكر في شأن الصبر، فتمسك النص بها وحاجته إليها، لأنها تفيد سرعة الإيقاع من تتابع نظم الكلام وترتيبه بلا

---

(١) عمدة القاري: ٢٤/ ١٧٨.

(٢) بلاغة الدعاء في الحديث النبوي أ د/ سلامة داود: ص٢٠٥.

مهلة، فبناء الفاء الصوتي يقوم على حرف واحد، والنطق به يكون سريعا، فناسب هذا المعنى معنى التعقيب بلا مهلة(١).

وقوله (فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا) ومجيء هذا البيان في عقب السابق تأكيد على لزوم الجماعة، وإخبار للالتفاف حول أمير الأمة، فهذا التهديد والوعيد الشديد الذي أريد به التخويف والترهيب لمن فارق جماعة المسلمين، وما اجتمعوا عليه لحمل النفس على الصبر، وعدم الوقوع في الفتن، وهذه الجملة تعليلية لأمر الصبر على ما يكره، وتفسيرية لضمير الشأن.

واعتمد النبي(ﷺ) إلى بيان المفارقة في القدر المضروب في قوله (شِبْرًا) على سبيل المثل، وهذا القدر طريق جيد في الحفاظ على جماعة المسلمين وعدم الخروج عليها ولو بأدنى شيء، وهذا الرسم والمقدار المحدد من النبي(ﷺ) طريق جيد من طرق المعرفة، لأنه ثمة "فرق بين الذي تأخذه من لفظ تسمعه الآذان والمعنى الذي تأخذه من صورة تراها العيون(٢)، وتعرف مقدارها وحدودها مرسومة أمامها، وهذا القدر المضروب وحاجة النظم إليه وتمسكه به، يدل على أنه لم يترك للنفس مجالا لبيان ما يحدثه من فرقة تجاه الجماعة حتى يقع عليه الجزاء بل جاء النص صريحا واضحا، وهذا أولى في إرساء الأحكام والقواعد، فحاجة النص إليه آكد.

والقصد بالجماعة في الحديث قيل: ظاهره سواد الناس وما اجتمعوا عليه في الإمارة، وقيل هم العلماء وهو أصح(٣)، ووقوله (شبرا) كناية عن معصية السلطان ومحاربته والسعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير(٤)، وإيثار هذا القدر

---

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: د/ محمد الأمين الخضري: ص١٥٣.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ص١٧٠.

(٣) مطالع الأنوار:٢/١٤١.

(٤) عمدة القاري: ١٧٨/٢٤.

كناية عن القلة وإن كان الخروج يسيرا، كأنْ بعد عن الجماعة وفارقها حتى لو كانت المفارقة محسوسة قدرا شبر(1)، والخروج عن الجماعة يقتضي الوقوع في الفتن وهذا الذي أراده النبي(ﷺ) من قدر شبر أي: من وقع فيها قدرا يسيرا ولو كان القدر مقدار شبر.

وإيثار الموت في قوله (فمات) للردع والزجر والتخويف والترهيب، أو يكون بانسلاخه عن الجماعة ومفارقته لها لم يعد في حكم الحي، وإن كان يعيش ويباشر حياته بل هو في عداد الموتى، وقوله (فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ) أي: من فارق الجماعة وانشق عنها يموت يوم يموت على موت أهل الجاهلية، وهذا الوصف يتناسب مع حاله عند انشقاق الصف، لأنه حينئذ لا يتبع إماما كأهل الجاهلية فهم "لا يرجعون إلي طاعة أمير ولا يتبعون هدى إمام، بل كانوا مستنكفين عنها مستبدين في الأمور، لا يجتمعون في شيء ولا يتفقون علي رأي"(2)، فانتشرت بينهم العصبية القبلية، وتقاتلوا حولها، وانقسموا إلى طوائف، ومن ثم دارت بينهم معارك طاحنة وحروب ضارية، فحال المنشق من الفوضى والتفرق، كحالهم في حياتهم وعند مماتهم.

والجملة قائمة على التشبيه المحذوف الوجه والأداة، حيث شبه موت المنشق عن الجماعة المفارق لها يوم يموت كموت الجاهلية قبل الإسلام، والوجه الفوضى والخروج عن الطاعة، وروعة التشبيه ماثلة في شدة المبالغة في الوصف بين المشبه والمشبه به، فكأنها لشدة ارتباطهما صار كالشيء الواحد، ومن ثم حذفت الأداة والوجه، وفي اللفظ (جَاهِلِيَّةٌ) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون عليه حين الموت، أو تكون علاقته اعتبار ما كان عليه من الفوضى وعدم الاتباع، فالموت لا

---

(1) دليل الفالحين:٥/١٣٦.

(2) شرح المشكاة للطيبي: ٨/٢٥٦١.

يوصف بالجاهلية أو غيرها، وإنما باعتبار ما كان عليه في الدنيا وهذا أوجه، وروعة المجاز في الزجر عند مفارقة الجماعة.

واختلف في معنى التشبيه هل هو على حقيقته وظاهره أم هو للزجر والردع والتنفير قيل: إنه ليس المراد أنه يموت كافرا بل يموت عاصيا، وورد ذلك مورد الزجر والتنفير، ومن ثم ظاهر التشبيه غير مراد ويؤيده أن المراد بالجاهلية التشبيه، أو يكون التشبيه على ظاهره ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن جاهليا(١).

وجاءت رواية البخاري (فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) وقد بنيت هذه الجملة على النفي والاستثناء وهو طريق يؤتى به في المعنى الذي يجهله المخاطب وينكره أو لمعنى من شأنه أن يجهله المخاطب وينكره، وهو دال في هذا النظم على معنى هذا فالمخاطب لم يكن عنده علم بالحكم، أو قد يكون له حكم عند خروجه فخوطب مخاطب من ينكر الحكم، كما دل القصر بجوار ما سبق على شيء آخر وهو عنايته(ﷺ) بالمعنى ورغبته في توكيده وتقريره في نفوس الأمة، لأن الأمر جد خطير يتعلق بتوحيد الأمة، ومن ثم ناسب القصر المعنى لما فيه من نبرة عالية، ولهجة حاسمة تتناسب مع حالة المنشق عن الجماعة التي تستدعي أن يكون المعنى مقررا في الذهن ثابتا في النفس ليكون أوقع فيها وأدفع لإنكاره.

وإيثار النفي بـ (ليس) يناسب النظم لأنه يأتي غالبا لتصحيح المفاهيم(٢)، حيث أراد النبي (ﷺ) أن يصحح للأمة وحدتها وائتلافها حول أميرها الشرعي دون الخروج عليه والانشقاق عن الجماعة، كما أن النفي بـ(ليس) يتضمن نفي عموم الجملة في

---

(١) ينظر فتح الباري: ١٣/٧.

(٢) ينظر البلاغة النبوية دراسة وتحليل: أ. د/ صباح دراز ص٢٠٧، ٢٠٨: رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

الماضي والحال والاستقبال([1])، حيث نفى عموم خروج أحد من الجماعة ومفارقته لها ثم جاء الاستثناء بإثبات حكم على العموم في الماضي والحال والاستقبال لا يخرج عنه، والمعنى ما أحد يفرق الجماعة إلا جرى عليه الحكم الماثل بعد الاستثناء، وهذا له أثره في المبالغة والتحذير من هذا الوعيد.

وجاء لفظ (أحد) لما يتناسب مع دلالة العموم مبالغة في الترهيب والوعيد لهذا الفعل، وهذا له أثره في النفس، لأنه كلما كان الفعل عاما كان له أثر في النفس وأوقع في الردع من الانحراف عن الجماعة، وجاء تقديم المسند إليه النكرة على خبره الفعلي لإفادة الاختصاص أي: باختصاص هذا الحكم للمفارق للجماعة، وهذا التقديم أفاد التشويق إلى ذكر الخبر فالمخاطب عند سماع النظم المسبوق بالنفي تشتاق نفسه إلى ما بعده فإذا جاء ثبت وتمكن.

وجاءت رواية أخرى للبخاري (فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) الاستثناء هنا بمعنى الاستفهام الإنكاري أي: ما فارق أحد الجماعة إلا جرى له هذا، أو حذفت ما فهي مقدرة، أو تكون إلا زائدة، أو عاطفة على رأي الكوفيين([2])، وأجاب بعضهم بأن ما النافية مقدرة، أي ما مات إلا ميتة جاهلية([3])، وقد رد الكوراني رأي الكرماني في ذلك بأن الاستفهام للإنكار فيصح بدون تقدير فقال: "وهذا غلط لأن من في قوله: (مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ) شرطية وقوله (فمات) جزاء الشرط فلا يعقل هنا استفهام لا لفظا ولا تقديرا"([4]).

---

(١) ينظر البرهان : ٣٩٦/٤.

(٢) ينظر: الكواكب الداري في شرح صحيح البخاري: ١٤٧/٢٤.

(٣) ينظر الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري:٨/١١.

(٤) ينظر الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري:٨/١١.

أو يكون الاستثناء هنا مفرغ والكلام قبله سبق بنفي لكنه ليس نفيا مباشرا والفائدة من إلا في هذا أنها أداة حصر وقصر أي قصر موت الجاهلية على هؤلاء.

وهكذا بين النبي(ﷺ) عاقبة كل من ينشق عن جماعة المسلمين ومن يفرق وحدتها بأنه يموت موت الجاهلية، فكما أنهم لا إمام لهم ولا هدى ولا اتباع ولا طاعة لهم ناسب ذلك كل من ينشق عن الجماعة، وقد جاء ذلك في نظم واضح مترابط ممسك بعضه بزمام بعض، فانعكس جماله على المعنى، فأكسب الكلام إيضاحا وجمالا يصل إليه السامع من أقرب طريق دون الخوض في دقائق الأشياء حتى يصل إلى المراد.

التفرق والقطيعة وعدم الوحدة سبب في قطع الرحمات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(ﷺ)، أَنَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ)، قَالَ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثنين، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»(١).

هذا الحديث الشريف يبين فضل الله ورحمته بهذه الأمة، فهي أمة كالجسد الواحد، تضعفه الشحناء والبغضاء وتقويه المحبة والمودة، وبهما تنال مغفرة الله وعفوه، فليس للفرقة فيها سبيل إنما السبيل في كل أمر يؤلف بين قلوبهم، ويجمع شملهم بلا شحناء ولا تباغض ولا قطيعة، لأن ذلك من أسباب قطع الرحمات، ومن ثم فقد حذر النبي(ﷺ) من بقاء القطيعة بينهم لأنها تؤخر مغفرة الله عز وجل، وفي يوم

---

(١) صحيح مسلم: ك/الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الشَّحْنَاءِ وَالتَّهَاجُرِ، حديث رقم: ٣٥ (٢٥٦٥).

الاثنين والخميس يأمر الله عز وجل ملائكته بتأخير الغفران حتى تكون المودة والرحمة، فالمغفرة من الله لكل عبد مؤمن بربه صاف مع إخوانه.

في هذا البيان ترى المزية في نظمه، وحسن سبكه عندما تتلاحق أجزاء نظمه، وينضم بعضها إلى بعض، ويشتد ارتباط البيان أوله بأخره حتى تضع البيان السابق وضعا واحدا أمام المتلقي، فسبيله في تمسك أجزاء نظمه، وضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها وسبكها في سلك، وهذا ما ينبغي أن تراعيه، وأن تعنى به للوصول إلى المراد، فإذا قلت: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثنين، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ)، فإذا بالسامع في حالة إلى نظم يلي هذا النظم، فإذا أتيت بثالث تمسك النص بالذي يليه وهو المستثنى منه؛ لمعرفة جرم ما اقترفته نفسه حتى يخرج من هذا الجزاء، ثم تكون المزية والشرف أن فتح له بابا يدخل منه، وفرق بين أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ طريقا آخر، فلا تصل إلى الحسن والفخامة، ولا ترى روعة كالروعة التي رأيتها والتي جاء عليها النظم، لأن من شأن تقديم الجزاء جذب النفس إلى العمل والاهتداء إليه.

وافتتح النبي(ﷺ) حديثه بأسلوب خبري في قوله (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ) والذين ألقي إليهم هذا الخبر يعد ذهنهم خاليا من ذلك، فالمخاطب لا يعرف شيئا عما يحدثه النبي(ﷺ) عن أبواب الجنة، ومن ثم أخبرهم إخبارا حقيقيا لا شك فيه، كما جاء خاليا من أدوات التوكيد ليعد هذا أمرا مسلما به، فلا يحتاج إلى توكيد لإثباته، وقد عد هذا من الافتتاحات المشوقة، لأن ذكر الجنة وفتح أبوابها؛ يثير انتباه المخاطب، ويلفت نظره إلى ما يلقي عليه فيصغي إليه رغبة في حصول الأجر.

وانظر إلى ارتباط النص بالمضارع (تُفْتَحُ) ليصور استمرار مشهد فتح أبواب الجنة ومغفرة الذنوب في هذه الأوقات، كما أن المضارع له القدرة على تصوير هذا المشهد الغيبي الواقع كأنه مشاهد عند حال السامع وأمامه، فكأنه يأتيك به من عالم

الغيب ويجعله حاضرا مشاهدا أمام الأعين، وهذا له أثره على المخاطب في قبول العمل والاستجابة السريعة له حتى يكون من الفائزين بالجزاء.

وفتح أبواب الجنة يحمل على الحقيقة تأهبا واستعدادا من الخزنة، واستقبالا لمن غفر له في هذين الوقتين، وفتح أبواب الجنة يدل على عظم مغفرته التي شملت هذا العبد فكان من الناجين، ويحتمل أن يكون ضرب من الكناية عن كثرة الغفران وإعطاء الجزيل من الثواب، ويبين هذا التأويل قوله(ﷺ) (فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا) يريد والله أعلم أن هذا الغفران الذي يكون بمعنى فتح أبواب الجنة، ويكون فتح أبواب الجنة علامة عليه تعم كل مسلم ليس بينه وبين أخيه شحناء(1).

وجاء دور الكناية لتقف النفس على جزاء الله العظيم الذي أعده، وهو عفو الله الكريم لمن حافظ على المودة والرحمة بين المسلمين، وعبر بالفتح دون الدخول لبيان اتساع أبوابها، وكثرة الداخلين منها واستيعابها لهم.

وما يرجح الحقيقة قوله(ﷺ) في رواية أخرى لمسلم (تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ) فعرض الأعمال مصحوبة بالمغفرة كما في قوله (فَيَغْفِرُ) يقتضي فتح أبواب الجنة لسكانها، فتفتح وتتأهب وتستعد لأهلها حقيقة.

وخص الله هذين الوقتين لفضلهما عند الله، حيث إن شرف الأوقات يرجع بالحقيقة إلى شرف الأحوال، فحالة الأعمال في يوم الاثنين والخميس، وما فيها من أجر عظيم اقتضى فتح أبواب الجنة، لأن الأول فيه ولد(ﷺ)، والثاني فيه عرض الأعمال، وعرض الأعمال مشمولة بالمغفرة يقتضي عظم الوقت الذي غفر لهذا العبد،

---

(١) ينظر شرح المشكاة للطيبي: ١٠/٣٢١٠، شرح الزرقاني على الموطأ: ٤/٤١٩، المنتقي شرح الموطأ: ٧/٢١٧.

أو يكون عظم الوقت الثاني لأنه تهيئة ليوم هو عند الله عظيم وهو يوم الجمعة؛ استعدادا له فتفتح الجنة تأهبا لعرض أعمال هذا اليوم المبارك.

أو يكون فتح أبواب الجنة في هذين الوقتين لحكمة لا يعلمها إلا الله عز وجل، وعليه فالاجتهاد في الطاعة في هذين الوقتين من الأعمال الموصلة للجنة مع البعد عن الشحناء والعداوة والبغضاء التي تفرق وحدة المؤمنين وتشت شملهم، وجاء (فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا) بالغفران في ثواب المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار لتناسب مع حال الفتح، فكلما كان الفتح وعرض الأعمال على الله كانت المغفرة، وفي الفعل استعارة لأن أصل الغفران الستر والتغطية([1])، فشبه التسامح في الذنوب والعفو بالغفران بجامع المحو وإخفاء الأثر في كل على سبيل الاستعارة في الفعل، وأثر الاستعارة تريك كثرة المغفرة ومحو الذنوب فلم يبق لها أثر عليه حتى كان من الفائزين بالجنة.

وثمة معنى جليل يجمع بين فتح أبواب الجنة ومغفرة الذنوب، ويؤكد حتمية تمسك النص باللفظ (يغفر) هو أن دخول الجنة يستلزم غفران الذنوب، ومن ثم غفر له أولا ثم فتحت أبواب الجنة له، وجاء فعل الغفران لما لم يسم فاعله لوضوح الفاعل وهو الله إذ لا يقدر على هذا إلا الله.

ولفظ (كل) في قوله (لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا) يبين أن كل سامع هذا البيان ممن لا يجعل مع الله ندا داخل في قلب هذا المعنى ومقصود به حتى جاء المستثنى منه فخرج من رحم هذا الجزاء إلا أن يعود إلى رحمه، وهذا له مذاق خاص في تمسك النص والربط بين أجزاء الكلام، مما لو قال: (لا يغفر الله لرجل بينه وبين أخيه شحناء) لأن الله يجعله داخل في الجزاء متوقف على الإقلاع عن الشحناء والبغضاء

(١) ينظر لسان العرب: غفر.

والرجوع إلى الود والمؤاخاة، ومن ثم يكون أحرص على هذا مما لو قال الثاني، كما أن تقديم الجزاء له أثر على السامع في إقباله على الأمر واشتياقه للعمل الذي يوصله إلى هذه المنزلة، فإذا جاء خيِّر بين الغفران ودخول الجنة، وبين بقاء الشحناء وعدم الغفران.

كما أن حاجة النص إلى لفظ العبودة آكد وأشد، لأن التعبير بكلمة (عَبْدٍ) فيه تعظيم لمقام العبودة لله التي تستوجب الطاعة له والانقياد إليه والتسليم لأمره، والمحافظة على ما جاء به نبيه(ﷺ) من فرائض وواجبات، وهذا يدعوه إلى الكف عن الشحناء والبغضاء تجاه أخيه، وهذه الجملة (لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا) هي المعول للمغفرة والقائدة للطاعات، فهذا القول يجعل العبد الموقن بالوحدانية والعبادة لله وحده لا شريك له يقبل على كل طاعة تبلغه الجنة، ويتجنب كل شيء يبعده عنها ويكون سببا في توقف وإنظار مغفرة ربه، ومن ثم جاء في إثرها (شَيْئًا) حتى لا تتسرب إليه الأشياء التي تكون سببا في عدم غفران الذنب ومنها الشحناء، ومن ثم جاء في عقبه المستثنى منه (إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ) فهذه الجملة هي القاطعة للرحمة، وبسببها لا تفتح الأبواب، فإذا وصلنا رحمنا وزالت الشحناء فتحت الأبواب وصرنا من أهل المغفرة، ومن ثم جاء الجزاء متوقفا عليها.

وأرى أن استخدام كلمة (رجل) هنا بدلا من عبد ومجيء النص عليها لأن هذا الذي في قلبه شحناء لأخيه لا يرتقي إلى درجة العبودية، لأن من شأن العبودة الطاعة المطلقة لله التي من خلالها لا يجد العبد حقدا ولا حسدا لأخيه، وجاءت الأخوة هنا للتذكير بما عليه من حقوق تجاه أخيه المسلم منها الصلة والرحمة والصفاء والود قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(١)، والتعبير بالبينية يدل على أن الشحناء عزلت ومنعت كل واحد عن

---

(١) الحجرات: الآية ١٠.

الآخر فهي كالجدار الفاصل بينهما، ولا أدل على ذلك من مجيء الشحناء على وزن التفاعل، والتعبير بها دون غيرها من أمراض القلوب لأنها الأم لها وهي القائدة لما بعدها، فإذا وجدت تسللوا من خلالها فأحدثت نار الفرقة والعداوة بين الأخ وأخيه، وقطعت كل ما أمر الله به أن يوصل.

وجاء قوله (أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا) بأسلوب الأمر الذي تكرر ثلاث مرات أي: أخروا وأهملوا مغفرة ذنوب المتشاحنين إلى أن يصطلحا فيصير الحب بينهما، وتزول الشحناء منهما، فدل الأمر على الزجر والتنفير ترهيبا من الشحناء التي شحنت قلب كل منهما بعداوة وكراهية لأخيه، وقول الله لملائكته بتأخير مغفرة الذنوب قد يكون أنه –تعالى– لما غفر لجميع أهل التوحيد تساءلت الملائكة أو دعت لهما بالمغفرة، لأنهما لم يجعلا مع الله ندا فقال (أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا) حتى يعودا إلى رشدهما، وتزول الشحناء بينهما.

وجاء اسم الإشارة (هَذَيْنِ) دون ضميرهما لتمييز المشار إليه أكمل تمييز، وإبرازه أمام أعين المخاطبين يفيد قوة الحكم بأن هذا هو سبب عدم الغفران؛ للحض على الإقلاع عن هذا الذنب الذي لا ينبغي أن يكون بين المسلمين، ومجيء (حتى) الغاية تبرز أن هذه الشحناء توقف المغفرة حتى تتحقق الغاية المرجوة لا تبطلها، وسبب ذلك التوقف دون البطلان هو أنه لم يجعل مع الله ندا، فحتى الغاية تبين أن الإنظار متوقف على الصلح هذا بخلاف أن يقول (اتركوا هَذَيْنِ).

وتكرار اللفظ بعينه أداة من أدوات التمسك النصي في هذا البيان، وتمسك النص بتكراره ثلاثا؛ ليشير إلى إبراز المراد بأقوى أسلوب؛ تأكيدا واهتماما له لأن المتشاحنين قد يكونا أحوجا إلى من يطرد الغفلة عنهما إمهالا لهما كي يعودا إلى رشدهما، ومن ثم بسط القول بغرض الزيادة في دلالته، فاسهم بقوة في التنفير من شر تلك الرذيلة التي تهلك صاحبها إن لم يسارع بالصفح والود تجاه أخيه.

كما أن التكرار أفاد كراهية الله عز وجل لهذه الشحناء التي تفرق وحدة الأمة وتكون سببا في منع الرحمة عنها، ومن ثم جاء الأمر بالإقلاع عنها؛ ليصبح المسلمون كالبنيان الواحد لينالوا مغفرة الله ورضوانه.

رفع ليلة القدر بسبب التشاجر

عنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ(ﷺ)، قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ(ﷺ) لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلاَحَى رَجُلاَنِ مِنَ المُسْلِمِينَ فَقَالَ: «خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحَى فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ، وَالخَامِسَةِ»(١).

هذا الحديث الشريف يبين أن رحمة الأمة في وحدتها، وأن تفرقها وتنازعها وتخاصمها سبب رئيس في قطع الرحمات عنها، وفيه أن النبي(ﷺ) أراد أن يعلم الأمة توقيت ليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين "كعب بن مالك وابن أبي حدرد كان له دين على كعب فطلبه فتنازعا ورفعا أصواتهما في المسجد"(٢)، فخرج رسول الله(ﷺ) ليخبرهما فوجد النزاع قائما، فرفعت فعسى أن يكون خيرا، ليجتهدوا في الطاعة في الليالي المحددة، ولا يتكلوا عليها.

هذا الحديث الشريف تقدم فيه كلام الصحابي على كلام رسول الله(ﷺ) وهذا له أثر في تمسك النص، لأنه أراد أن يصف مقام الكلام، ويحدد ملامح السياق قبل أن يحدثنا عن الخبر نفسه تمهيدا وتهيئة للمعنى، ونلاحظ أنه(ﷺ) بدأ بالأمر عندما وصف الهيئة التي كانوا عليها فقال (خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحَى فُلاَنٌ

(١) صحيح البخاري: ك/فضل ليلة القدر، بَابُ رَفْعِ مَعْرِفَةِ لَيْلَةِ القَدْرِ لِتَلاَحِي النَّاسِ، حديث رقم: ٢٠٢٣، وصحيح مسلم: ك/الصيام، بَابُ فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَالْحَثِّ عَلَى طَلَبِهَا، وَبَيَانِ مَحَلِّهَا وَأَرْجَى أَوْقَاتِ طَلَبِهَا، حديث رقم: ٢١٧ (١١٦٧)، واللفظ للبخاري.

(٢) عمدة القاري: ١/٢٨١، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: ١/١٩١، والتنوير شرح الجامع الصغير: ٥/٤٧٦.

وَفُلاَنٌ) لأن هذه الجملة هي التي دار عليها الحديث بل هي سبب لرفع ليلة القدر أعظم ليالي الدنيا، فكل ما بعدها مبني عليها حتى قصد من وراء هذا المعنى انتباه السامع فلا ينشغل إلا بما حدث من أمر التلاحي ومن ثم كانت حاجة النص إلى هذا البيان أشد.

وقوله (خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحَى فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ) يدل على أن التلاحي كان في زمن الخروج وقريبا منه لذا عبر بالفاء في (فَتَلاَحَى) بعد فعل الخروج، ومجيء لفظ التلاحي على صيغة التفاعلما يبين شدة تمسك النص وإيثاره هذا الوزن، لأنه يجعل كل واحد منهما قد نال من أخيه وعرَّض به، وهذا أمر لا يرضاه رسولنا(ﷺ) من أجل ذلك رفعت، وعبر عن الرجلين بفلان وفلان؛ تعميما وخفاء لأمرهما لأنهما قد حجبا أمرا عن المسلمين هم أحوج الناس إليه، وأحرصهم على معرفته.

وقوله (فَرُفِعَتْ) كناية عن إخفائها عن الخلق، وبقاء ثوابها لهم دون تحديد هذه الليلة، لأنه لما كان التلاحي من أمر الرجلين رفع وقتها عن رسول الله(ﷺ)، حيث دلت الكناية على المعنى مصحوبا بالدليل والبرهان، فكان ذلك أشد وآكد وأتم على المراد، فقوله (فَالْتَمِسُوهَا) يدل على خفائها وتتبع أثرها بين الليالي، وقد يكون في اللفظ مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون، لأنه لما خرج النبي(ﷺ) عليهم ليخبرهم أي ليلة هي ليلة القدر تلاحى الرجلان دل هذا على "أنها شرعت أن تقع، فلما تلاحيا ارتفعت، فنزل الشروع منزلة الوقوع"(١).

(١) شرح المشكاة: ١٦٢٧/٥.

يقول صاحب التنوير: "فرفع تعيينها لتلاحي الرجلين فأصاب شؤم تلاحيهما الأمة كلها وحرمت تعيين ليلة القدر"(١)، قلت: إذا كان الله قد رفع ليلة القدر بسبب التلاحي بين الرجلين، فما بال الأمة وقد تلاحت وتشتت وصالها؟، قلت: لأن التلاحي والسباب والتنازع وإن كان مذموما ومحرما إلا أنه أشد حرمة في زمن رسول الله(ﷺ) وفي مجلسه الذي هو فيه، لأن رفع الصوت في مجلسه يحبط العمل، فما بال النزاع والشقاق؟ أما واقع الأمة فهي وإن تشتت وتفرق وصالها إلا أنها أمة مرحومة قد خصت بخصائص دون غيرها إلا أن الشقاق والنزاع يكون سببا في قطع الرحمات، وأراد النبي(ﷺ) أن يخفف عن الأمة أمر تعينها فقال (وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ) والخير محقق وواقع، لأنه لما رفعت عنهم اجتهدوا في طلبها فأكثرو في الطاعات كل ليلة من الليالي الثابتة في الحديث، والتي يترجح وقوعها فيها، وإلا كانوا قد اتكلوا عليها، وتركوا العمل في غيرها.

وجاء قوله في تتبع أثرها (فَالْتَمِسُوهَا) كناية عن طلبها وتحريها في هذه الليالي، وأثر هذه الكناية لأنه(ﷺ) أراد أن يؤكد المعنى ويرسخه في النفس، فأتى بالمعنى الحسي وهو اللمس وجعله كناية للمعنى العقلي، وهذا أبلغ وآكد للمعنى وأولى له من أن تدع المعنى الحسي وتصرح بالذي تقوله.

وقوله (فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ، وَالخَامِسَةِ) أي: في العشر الأواخر، وللعلماء أراء في هذا العدد قيل المراد بالتاسعة تاسعة تبقى، فتكون ليلة إحدى وعشرين، والسابعة سابعة تبقى فتكون ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة خامسة تبقى فتكون ليلة خمس وعشرين على الأغلب في أن الشهر ثلاثون يوما، وقيل تسعة تمضى فتكون ليلة تسع وعشرين وسبع وعشرين وخمس وعشرين(٢)، والأوجه الثاني وهو تسعة

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير: ٣/٤٠٩.

(٢) ينظر شرح الزرقاني على الموطأ: ٢/٣٣٢.

مضت لأنه لم يرد فيها ليلة السابع والعشرين وجاءت أحاديث عن النبي(ﷺ) تؤكد التحري فيها بل وجزم بعض الصحابة على أنها هي المرادة، وأقول قد يكون هذا التلاحي سببا لهذا التعميم والتغطية والخفاء لهذه الليلة دون تحديد إن كان ليالي بقيت أم ليالي مضت من الشهر، فلما ولى زمن التلاحي وتصافح المؤمنون، جاءت رواية أخرى للبخاري بتبين الأمر فقال (فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ)(١)، وعليه فإن هذا التحديد رحمة من الله لهذه الأمة وفضل كبير أن جعله في رمضان في العشر الأواخر، لترفع الأمة عنها النزاع والتفرق والشتات، وتعود إلى الوحدة والاعتصام بحبل الله المتين لتسعد برضوان الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

(١) صحيح البخاري: كتاب فضل ليلة القدر، بَابُ التِمَاسِ لَيْلَةِ القَدْرِ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، حديث رقم: ٢٠١٥.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبد الله البشير النذير السراج المنير(ﷺ) وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد

فيطيب للباحث أن يذكر أهم ما توصل إليه من نتائج والتي تتخلص فيما يلي:

*إن وحدة الأمة وجمع كلمتها له وجوه عدة وصور متنوعة من أهمها تحقيق الأخوة الملازمة للإيمان لدى أفراد الأمة فلا تكون الوحدة إلا بها، ومن ثم ذاق حلاوة الإيمان من أشرب روح الأخوة.

*أحيانا كان يضع النبي(ﷺ) النفس على أسباب الوحدة، وأخرى كان يحرص على ذكر الصفات التي تحول بين وحدة المؤمنين، محذرا الوقوع فيها، وأخرى كان يعددها ويذكر العقوبة لمن وقع فيها.

*إن وحدة الأمة وتمكنها يكون عن طريق الإيمان بالله والاعتصام بحبله، والإيمان بكل ما جاء به رسوله، فلا يكون للمؤمنين شأن ولا عزة ولا وحدة إلا بكتاب الله وسنة نبيه(ﷺ)، ومن ثم لا تقوم وحدة المؤمنين مالم تجمعهم عقيدة واحدة.

*تنوعت طرق الحديث ووسائل التمسك النصي في الكشف عن وحدة الأمة، فكان للمقام دور في تنوع الأساليب البلاغية، فأحيانا كان يأتي بالخبر مؤكدا، وآخر غير مؤكد حسب ما يحتاجه السياق والمقامات المختلفة.

*كان للأساليب الإنشائية دور في التمسك النصي الذي يقصد به توجيه السامع؛ للفت الانتباه والإيقاظ نحو المراد، وقد كان النهي من وسائل الربط النصي الذي يربط البيان بعلته، وكذلك الأمر وسيلة من وسائل التمسك النصي لأنه(ﷺ) إما أن يكون آمرا نحو وحدة الصف أو ناهيا كفرقتها، وقد جاء ذلك معللا لأن النفس تحتاج إلى

من يعلل لها، ويرشدها إلى طريقها الصحيح.

*كانت للصورة البيانية دور مهم على اختلاف صورها في التمسك النصي، وجودة الاحتباك؛ لما لها القدرة على ربط أجزاء الكلام، وتوضيح المعنى للسامع وجعله شاخصا ماثلا، وذلك بصورة حاضرة مشاهدة للتقريب بينها وبين المراد.

*جاء دور التمثيل الذي يصور المعنى ويقربه للسامع؛ لتصل النفس إلى إدراك المعنى من خلال التمثيل مثل (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ....).

*عالج النبي(ﷺ) أسباب الفرقة مباشرة، حيث وضع السامع عندها بأوجز أسلوب، وأوضح بيان حتى لا تحتاج النفس إلى من يقربها ويوضحها، فأتى من الأساليب البلاغية المتعددة والنكات البيانية التي يصل بها القارئ والسامع للوقوف على وصف الأمة وتفرقها في نظم مترابط يمسك بعضه بعضا.

*لما كانت النفس البشرية تحتاج إلى تقويم وتأهيل يصرفه عن أسباب الفرقة وموانع الوحدة جاء التعبير بأساليب الترهيب التي تتعلق بمحاربة الفرقة؛ لسلامة الأمة من الانحراف والانزلاق في شعب الأحزاب، فاختار من الألفاظ ما يناسب الشدة ليكون ذلك أدعى للخوف في مقام المبالغة في النهي عن الفرقة.

* كان لأسلوب الترقي دور مهم في جودة السبك، وحسن الالتحام بين أجزاء النص، وذلك لبيان الخصال الموجبة للوحدة، فهو من أدوات التمسك النصي وجاء واضحا، حيث ترقى النبي(ﷺ) في بيان هذه الخصال، ودورها في وحدة الأمة للإرشاد إلى طريق النجاة.

*كان للحوار في حديث الوحدة أثر في شدة حبك النص وتلاحمه وتماسكه؛ لما فيه من طريقة الربط بين أجزاء النص الواحد، كما له القدرة على جذب انتباه السامع إلى تلقي أمرا من الأمور المهمة التي تقوي الأمة وتوحد صفها.

*جاءت أحاديث الوحدة متماسكة متشابكة يشد بعضها بعضا ، حيث يأتي النبي(ﷺ) برحا الحديث، والمعنى الأم، ثم يدور حوله في لفظ قائم ومعنى بينهم رابط، وهذا من أعظم أدوات الربط بين أجزاء النص الواحد، مثل (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، وقوله(ﷺ): مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ).

*أحيانا كان(ﷺ) يعدد خصال الألفة والمحبة والتراحم دون الاقتصار على خصلة واحدة ليصور صورة المجتمع في أبهى صورة وأحسن مقام.

*جاءت الصورة مناسبة لمعناها موضحة لها، حيث أتى النبي(ﷺ) ببعض الصور التي تثبت نفاسة المشبه للمشبه به في وحدة موضوعية قائمة على وحدة الأمة، فأخرج المعنى المعقول الخفي في صورة ملموسة جلية على السامعين.

*كان لبراعة الاستهلال دور مهم في جذب انتباه المخاطب واستدعاء فكره مثل قوله (ﷺ): (إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا) وكان للتقسيم دور مهم في التأثير على النفس يحملها على الاستيعاب وإدراك المطلوب من النظم.

*كان للشرط دور مهم في تمسك النص، وبناء وحداته وانسجامه، فأحيانا كان يأتي بأداة الشرط (إذا) التي تفيد التحقيق وثبوت الوقوع حثا منه(ﷺ) على أن هذا أولى أن يكون مثل قوله(ﷺ):(إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَى رَجُلَانِ دُونَ الآخَرِ)، وكذلك الشرط بـ(من) التي تفيد ديمومة الحكم وعمومه؛ ليجعل الجزاء في كل وقت، وهذا ما يؤكد على وحدة الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

*أحيانا كان يستخدم بعض الألفاظ التي تحث الناس على الاستماع، وذلك لانشغال الناس بفرض وركن كالحج، وهذا له مزيد عناية بالمعنى الذي سيلقى، لأن الانقطاع عن أعمال الحج، والإنصات إليه(ﷺ) يدل على شدة المقام والمقال مثل قوله(ﷺ) فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: (اسْتَنْصِتِ النَّاسَ)

*أحيانا كان يقدم النبي(ﷺ) الجزاء فيظهر التمسك النصي من خلال هذا التقديم، ثم

يبين أن الفرقة بين الأمة كانت سببا في رفع هذا الجزاء والنعيم، وذلك للكف عن التناحر والتشاجر والتقاطع، لأن هذه الخصال ترفع الرحمات، كما أن النفس إن لم تنه عن أسباب الفرقة بالردع والترهيب كما في أحاديث (إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ)، فإنها قد تردع وتكف عن الفرقة إذا هي حرمت من الجزاء والنعيم.

*يأتي أسلوب الفصل والوصل بين الجمل حسب النص الوارد فيه؛ ليجعل الجمل مترابطة متماسكة كل جملة تأخذك إلى الأخرى في جامع بينهما ورابط.

*جاءت المحسنات البديعية بين الألفاظ والتراكيب خادمة للمعنى، فقد كان للطباق الأثر الواضح في الربط المعنوي بين أجزاء النص، بحيث يجعل النظم متماسكا يشد بعضه بعضا، لأن النفس عند سماع الضد تحتاج إلى نقيضه حتى يستقر المعنى ويثبت، كما كان للجمع والتقسيم دور في ربط الكلام بعضه ببعض، ورأينا الانسجام ماثلا بين تلك التراكيب.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ	١٠١	آل عمران	٣٣
وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا	١٠٣	آل عمران	٦، ٣٣
وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ	١٠٥	آل عمران	٢
كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ	١١٠	آل عمران	٣
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ	١٥٣	الأنعام	٧، ٣٥
وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ	٢٠٤	الأعراف	٤١
وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ	٤٦	الأنفال	٢، ٨
وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ	٦٣	الأنفال	٦
وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ	٧٢	الأنفال	١٤
وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ	٧١	التوبة	٢٢، ٢٣
وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ	١١٣	هود	٢٠
قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ	٨٧	الكهف	١٤
إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ	٩٢	الأنبياء	٢، ٧
وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ	٥٢	المؤمنون	٢٥
وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا	١٩	الفرقان	١٤

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ	٢٢١	الشعراء	٣٥
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ	٦٧	العنكبوت	٩
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا	٣٣	فصلت	٤٦
فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ	٤	محمد	٤٤
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ	١٢	محمد	٣٣
مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ	٢٩	الفتح	٩
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ	١٠	الحجرات	٣،٦،١٣، ١٥،١٦، ٦٧
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ	١٣	الحجرات	١٥
إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا	١٠	المجادلة	٣٩

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دُونَ الآخَرِ	٣٧
اسْتَنْصِتِ النَّاسَ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا	٤٠
اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ	٤٥
الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ	١٤
المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا	٢٢
الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ	٢
إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا	٢٩
انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا	١٩
إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ	٤٨
إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ	٤٩
تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثنين، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ	٦٤
ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ	٩
خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ	٦٩
لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا	١٠
"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ	٢٥
مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ	٥٤
مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ	٥٨
مَنْ يَضْمَنُ لِي وَاحِدَةً وَأَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ	٣٦

المصادر والمراجع

*أساليب القصر في القرآن الكريم: د/ مصطفى حميدة، الشركة المصرية العلمية (لونجمان) مصر ط/ الأولى، ١٩٩٩م.

*أسرار البلاغة: للشيخ عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

*الإعجاز البلاغي: أ. د/محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، ط/ الثانية، ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م.

*إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم: عياض بن موسى، المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل: دار الوفاء للطباعة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

*الأمثال في الحديث النبوي: للحافظ الأصفهاني، تحقيق. د/ عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية بومباي، ط/ الثانية، ١٤٠٨هـ.

*البديع من المعاني والألفاظ : أ. د/ عبد العظيم المطعني، دار وهدان للطباعة والنشر، ط/ الأولى ١٩٧٦م.

*البرهان في علوم القرآن: الزركشي المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، إحياء الكتب العربية، الطبعة: الأولى: ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

*بلاغة الدعاء في الحديث النبوي أ. د/ سلامة داود، رسالة دكتوراه- إشراف أ.د/ عبد الحميد محمد العبيسي، مخطوطة في كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

*البلاغة النبوية دراسة وتحليل: أ. د/ صباح دراز: رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

*تاج العروس من جواهر القاموس: الزَّبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

*التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: الدار التونسية للنشر– تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

*التصوير الفني في القرآن الكريم: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط/ السادسة عشرة، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.

*التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف: أ.د/ علي علي صبح: المكتبة الأزهرية للتراث الطبعة: الأولى: ١٤٢٣ هـ– ٢٠٠٢م.

*التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ: محمد بن إسماعيل أبو إبراهيم، عز الدين، المحقق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم: مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م.

*الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

*حاشية الجمل: سليمان بن عمر بن منصور المعروف بالجمل، دار الفكر، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.

*دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

*دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: بن علان، تحقيق: خليل مأمون شيحا: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

*روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي:

دار إحياء التراث بيروت.

*شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد: دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، الطبعة: العشرون ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م.

*شرح أحاديث من صحيح البخاري: أ. د/ محمد أبو موسى: ط/ الأولى، ١٤٢١هـ– ٢٠٠١م.

*شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: محمد بن عبد الباقي، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد: مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

*شرح الطيبي على مشكاة المصابيح: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي: د. عبد الحميد هنداوي: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

*الصبغ البديعي د/ أحمد موسى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٨هـ– ١٩٦٩م.

*صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

*صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري: المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

*عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العينى: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

*فتح الباري شرح صحيح البخاري، بن حجر أبو الفضل العسقلاني: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩.

*فيض الباري على صحيح البخاري: محمد أنور شاه الكشميري، المحقق: محمد بدر عالم الميرتهي: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

*الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

*الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: شمس الدين الكرماني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان ،طبعة أولى: ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.

*الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري: أحمد بن محمد الكوراني، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

*الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم: محمد الأمين بن عبد الله الشافعي، مراجعة: هاشم محمد علي مهدي: دار المنهاج - دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى،١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

*لسان العرب: جمال الدين ابن منظور: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ. *مجالس التذكير من حديث البشير النذير: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

*مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي الملا: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

*مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

*مطالع الأنوار على صحاح الآثار: إبراهيم بن يوسف، أبو إسحاق ابن قرقول:

تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – دولة قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

*المطول: سعد الدين التفتازاني، د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت- ط/ الثانية ٢٠٠٧.

*معجم الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

*المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ..

*من أسرار البيان النبوي: د/ محمد أحمد علي، دار الصحوة- ط/ الأولى ١٤٠٦هـ.

*من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: د/ محمد الأمين الخضري، ممد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م..

*من بلاغة الحديث النبوي : د/ محمد أحمد سحلول: دار الاعتصام بالقاهرة، ١٩٩٩م.

*المنتقى شرح الموطإ: أبو الوليد سليمان القرطبي الناشر: مطبعة السعادة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٣٢ هـ.

*المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: النووي: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.

*نظرات في أسلوب الإنشاء والقصر: أ. د/ ،محمد إبراهيم شادي ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

*وجوب التعاون بين المسلمين: عبد الرحمن السعدي: المعارف- الرياض، ط/ ١٤٠٢هـ.